١٧٢

روايات احلام

سهم في القلب

www.elromancia.com

مرمورية

روايات احلام

سهم في القلب

جزيرة تريناكا هي عادةً ملجأً للهاربين من هموم الدنيا وآلامها، ولكنها كانت لآشلي جنة الانتقام. ففيها راندال هولمان، الرجل الذي قتل أخيها قبل عشر سنوات والذي نذرت حياتها للانتقام منه.. وسلاح المرأة في الانتقام قديم ولكنه فعّال: عليها أن تغويه ليقع في شباك سحرها ثم...

... ثم يأتي السؤال الأزلي: هل يمكن أن يتغلب عقل المرأة على عواطفها؟ وإلى أي مدى تستطيع أن تثأر من الرجل الذي تحبه؟

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٧٥ ل.س.	قطر ٦ ر.	المغرب ١٠ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ٢ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ١٠ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

١ ـ في أثر العدو

في مكان بعيد في الأسفل، كانت آشلي تستطيع رؤية ظل الطائرة الأسود، وكأنه طير صغير يطوف تحت أشعة الشمس فوق أمواج المحيط.. وعرفت أن الساعة التي تشتاق إليها وتتخوف منها معاً سرعان ما تصل.. لكن لا زال أمامها قليل من الوقت لتجمع شتات نفسها قبل هبوط الطائرة في «ترياكا» أكبر جزيرة في المجموعة، والوحيدة التي فيها مدرج وبضعة أبنية تحمل شبهاً لمطار صغير.

هنا داخل الطائرة المليئة بالركاب المحليين يضحكون ويثرثرون بسعادة، كان من الصعب أن تتذكر أنها منذ أقل من أربع وعشرين ساعة، كانت تقف على رصيف محطة قطار في بلدة صغيرة، جنوبي انكلترا، تودع أمها.. لم تكن الشمس ساعتها مشرقة.. كانت السماء تمطر، لكنه مطر خفيف لا يستحق رفع مظلة فوق الرؤوس، مع ذلك فقد أحست بالبلل والبرد والبؤس حتى العظام.

لم يكن في فراقهما دموع.. بل أن أمها كانت سعيدة لرحيلها.. كانت عيناها تشرقان على غير عادة، وهي تفكر بالحظ غير العادي الذي هبط عليهما.. وأمسكت السيدة باست بيدي ابنتها وضغطت عليهما بشدة، ليس بسبب الحب، بل لإيصال مضمون كلماتها الملحة:

ـ إنه القدر.. أنا واثقة من هذا.. القدر هو الذي جعلك مقبولة لوظيفة مساعدة طبيب.. ثم عرفتِ أنه موجود هناك.. ذلك الرجل الذي تسبب بموت أخيك المسكين.. إنه ليس أفضل من مجرم قاتل.. بل أسوأ بكثير لأنه نفذ بفعلته.. حين كتبت إلى ابنة عمك كاتي أقول لها إنك ستعملين في ترياكا،

ردت تقول إن راندال هولمان موجود هناك.. فعرفت أن القدر أراد هذا!

شدت على يدي ابنتها أكثر ونظرت إلى عينيها:

ـ عديني آشلي أنك إذا وجدت طريقة لمعاقبته على ما فعل لأخيك، فستفعلين!

احتجت آشلي: أوه.. أمي!

لكنها كانت تعرف أن لا جدوى من الاحتجاج.. فمنذ وفاة أخيها قبل عشر سنوات، ونفس أمها مملوءة بالحقد على الرجل الذي تسبب بوفاته.

أغمضت السيدة باست عينيها:

ـ كنت صغيرة.. ولم يكن الأمر ثقيلاً عليك..

رأت آشلي خطوط الحزن تحفر خطوطاً عميقة على وجه أمها.. وهي تكمل:

ـ أرجوك.. أرجوك عزيزتي.. افعلي هذا لأجلي.

أحست آشلي بأن قلبها امتلأ حقداً على الرجل الذي تسبب لأمها بكل هذه التعاسة.. وقالت:

ـ حسن جداً أمي.. إذا وجدت طريقة للانتقام، سأجعله يدفع ثمن ما فعل.

ثم وصل القطار ضاجّاً إلى المحطة ولم يعد هناك وقت سوى لقبلة سريعة على الخد من أمها وكأنما بعد تفكير، بعد أن ضمتها آشلي بشدة.. تلك المرأة المتجهمة الوجه التي ليس لها في الدنيا غيرها.

ظهرت الجزر للعيان الآن.. شواطئها الطويلة التي يحدها النخيل ذات الرمال المرجانية البيضاء الذهبية، وراءها منازل وأكواخ بيضاء تتجمع في الأودية وعلى سفوح التلال.. وكان المضيف المبتسم يجول بين المقاعد ينبه الجميع ليربطوا الأحزمة.. وسارعت آشلي تضع حزام مقعدها في مكانه وهي تفكر: قاتل أخي.. لقد قالت الشرطة إنه حادث سير عادي حين جذبوا جسد بن من حطام الجاغوار.. لكن أمها توقفت عن الصراخ فجأة وصاحت:

ـ لا..! هذه جريمة قتل!

لامست الطائرة المدرج بنعومة.. إنها الآن في تريناكا وقد أقسمت أن تنتقم من راندال هولمان.. قاتل أخيها.. ولقد أتى بها القدر الآن إلى هنا لتفي بقسمها.

وهي تنزل من الطائرة، شعرت بحرارة شديدة وأحست أنها ترتدي ملابس كثيرة. بسرعة بحثت في حقيبتها عن نظارتها الشمسية فقد وجدت وهج الضوء مؤلماً لعينيها.. ولم يستغرق خروج الركاب القلائل من الجمارك كثيراً، وكانت على وشك أن تستدير حين تقدم أحد المحلين ليحمل لها بسرعة حقائبها.

ابتسم الرجل الضخم ابتسامة توازي حجمه:

ـ لا تخافي آنسة.. سأكون حذراً.. سأوصلك إلى الدكتور ماك.

أحست آشلي بالتردد لكنها فعلت ما طُلب منها، ولحقت به إلى باحة الاستقبال الصغيرة.

بدا الرجل الذي تقدم لمقابلتها اسكتلندياً حقيقياً.. كان طوله عادياً، لكن جسده ممتلىء وكتفاه عريضتين.. وشعره الذي كان يوماً بلون أحمر كالزنجبيل يجده الآن شعر رمادي..

ـ لقد وجدتها فعلاً فيليب؟

وابتسم يصافحها بيد ثابتة.

ـ أهلا بك في تريناكا فتاتي.. هل كانت رحلتك جيدة؟

ابتسمت آشلي له باستحياء، وقد أعجبها مظهر الرجل الذي سيكون رئيسها في مستشفى الجزيرة.

ـ ابتعد يا رجل.. أنت لم تقدم نفسك حتى.. أنا مارتا ماكنزي عزيزتي، وهذا أريك زوجي.. لكن الجميع ينادونه ماك.. والرجل الذي قابلك هو خادم المنزل فيليب.. والآن أظن أنك متشوقة لفنجان شاي منعش ودوش بعد السفر الطويل.. لذا سننطلق فوراً إلى الكوخ «البينغالو».

كان واضحاً أن هذه المرأة الممتلئة الجسم الرمادية الشعر معتادة على التنظيم.. فسرعان ما جعلتهم يجلسون في سيارة أميركية ضخمة، والحقائب في الصندوق. وجلست آشلي قربها في المقعد الخلفي.. وأحسّت باسترخاء كامل

بصحبة الزوجين اللذين ستعيش معهما. . قاد فيليب السيارة على طول طريق تحف بها أوراق شجر المانغو القرمزية والخضراء. . في كل مكان من حولهم، كانت تعبق رائحة الحقول المسمّرة البنية اللون. . ومرّت بمنازل صغيرة مزركشة بحبال الغسيل، ورجال ونساء يغنون وهم يعملون في الحقول.

بينما كانت آشلي تصغي إلى الزوجين ماكنزي يدلّانها على أماكن مهمة. فكرت أن الجزيرة مكان سعيد جداً. . وتاقت كي تكون ما تبدو عليه. . فتاة جاءت لتعمل في هذه الجزيرة الاستوائية المشمسة في جزر الهند الغربية «الانديز». . ثم جمعت شتات نفسها، لن يكون لها سعادة في تريناكا. . يجب أن تنفذ ما جاءت لأجله، ثم تترك هذا المكان الجميل خلفها إلى الأبد.

بعد وقت قصير، اقتربت السيارة من البحر وما هي إلا دقائق حتى وصلت منزل عائلة ماكنزي «البنغلو». . مثل معظم المنازل التي رأتها، كان مدهوناً باللون الأبيض وله شرفة طويلة تمتد على طول الجهة البحرية. . لم يكن هناك حديقة، بل مجرد مرجات خضراء وسقيفة مظللة بأشجار جميلة مع الكثير من النباتات المتعرشة الجميلة الزهور المتعددة الألوان.

قادتها مارتا إلى غرفة جلوس كبيرة وأشارت إلى الحمام، ثم وصلتا إلى غرفتها.

ـ أرجو أن تعجبك الغرفة. كانت غرفة ابنتي حين كانت في المنزل، لكنها الآن متزوجة من رجل أميركي وتعيش في كاليفورنيا.

أحست آشلي برنة أسف في صوت المرأة، وقالت متعاطفة معها:

ـ لا بد أنك تشتاقين إليها كثيراً.

ـ أوه. . حسناً. . إنها سعيدة، وهما يحاولان المجيء إلى هنا دائماً. . ربما حين يحصل ماك على فرصته التالية، سنذهب لزيارتها في إجازة طويلة.

ـ وهل لديك أولاد آخرون سيدة ماكنزي؟

ردت بافتخار بلهجتها الاسكتلندية:

ـ آي. . أجل. لدي ابنان كلاهما في الجامعة في أدنبرة. . ستقابلينهما حين يعودان لفرصة الصيف.

قاطعهما فيليب الذي دخل الغرفة يحمل حقائب آشلي، ووضعها بحذر على الأرض وعلى وجهه ابتسامته الكبيرة المعتادة.

قالت مارتا:

ـ سأتركك الآن لتفرغي حقائبك. . العشاء في الساعة الثامنة، ولا أظنك ترغبين في صحبة أحد في أول يوم لك هنا. . لذا سنكون نحن الثلاثة فقط. لكنني رتبت حفلة عشاء ضخمة للغد لتتمكني من لقاء بعض أصدقائنا.

ببطء بدأت آشلي إفراغ حقائبها. أخذت تعلق الفساتين الجديدة في الخزانة الواسعة وتطوي الملابس الداخلية الحريرية المخرمة في خزانة أدراج تماثل خزانة الملابس. كانت قد خرجت إلى أسواق لندن لشراء ملابس جديدة، أصرت أمها أن تشتريها لهذه الرحلة. . ولحسن الحظ أن والدها ترك لهما مدخولاً مريحاً أكثر من كاف لإعالتهما في المنزل المؤقت في «البنويك» الذي أمضت فيه آشلي طفولة سعيدة، والذي تحبه لأنه بيت طفولتها ولها فيه ذكريات حبيبة.

لكن كل هذا انتهى فجأة منذ عشر سنوات بعد حادث تصادم السيارة. . بيع المنزل واضطرتا إلى الانتقال جنوباً للسكن في شقة قرب مدرستها. فيما بعد، حين ذهبت إلى كلية الطب، انتقلت أمها مجدداً لتعيش قربها، مصرّة على عودتها إلى المنزل كل ليلة. . هكذا كانت آشلي دائماً مختلفة. . الغريبة الوحيدة التي يجب عليها أن تذهب إلى منزل أمها كل ليلة. . بعض الزملاء من الطلاب كانوا يسخرون منها، بينما الآخرون كانوا يشفقون عليها. مرة واحدة فقط تمردت. . كان هناك طالب في السنة الثالثة انجذبت إليه وخرجا معاً إلى حفلة موسيقية. . حين اكتشفت أمها الأمر، أصيبت بالهستيريا غضباً، وعانت آشلي من صدمة نفسية. هكذا، عندما كان أي شاب يقع فريسة سحر شعرها الذهبي المتموج وعينيها الكهرمانيتين السوداوتا الرموش، كانت ترفض بشدة ما هو أكثر من الصحبة كزميل دراسة.

كان الحمام حديثاً جداً، والدوش بارداً على بشرتها الحارة. . وغيرت ملابسها لترتدي فستاناً قطنياً بسيطاً، وتبرجت، ثم انضمت إلى مضيفيها على الشرفة.

أشارت مارتا إلى كرسي إلى جانبها:

ـ تعالي وانضمي إلينا عزيزتي.. من اللطيف وجود شابة صغيرة في المنزل مرة أخرى.. كان يزورنا الكثير من الأصدقاء طوال الوقت. حين يكون الأولاد هنا، يستقبلون أصدقاءهم متى أرادوا.. وأريدك أن تشعري بالحرية ذاتها.

ردت آشلي بامتنان: شكراً لك سيدة ماكنزي..

ـ أوه.. هذا لا شيء، ولسوف تنادينني مارتا أو السيدة ماك.. كما يفعل الجميع.

سألت آشلي وهي تجهد كي يكون السؤال عفوياً:

ـ وهل هناك الكثير من الناس في مثل عمري على الجزيرة؟

انتظرت الرد بقلب خافق. لقد أبلغت أمها بوجود راندال هولمان عبر مربية بعيدة.. لكن هناك دائماً إمكانية أن يكون انتقل إلى مركز آخر.

رد عليها الدكتور:

ـ تعنين ممن يعيش هنا دائماً؟ هناك مساعدي الحالي في المستشفى، ماكميلان كينغ، وهو أكبر منك ببضع سنوات. وستلتقينه غداً حين أجول بك في المستشفى.

قاطعته زوجته:

ـ ثم هناك عائلة والكرز، جوناثان وكاتلين. جوناثان يعمل في الإدارة الزراعية ويسافر كثيراً، لذا ستكون كاتلين مسرورة جداً باصطحابك إلى السباحة والحفلات حين يكون لديك الوقت.

وصلت الخادمة المرتدية الزي المخطط تستدعيهم للعشاء.. ومضى بعض الوقت قبل أن تتمكن آشلي من إدارة الحديث مجدداً إلى الموضوع الذي يهمها:

ـ قلت إنك دعوت بعض الأصدقاء للعشاء مساء الغد، هل من أخبرتني عنهم سيكونون من بين المدعوين؟

ردت مارتا:

ـ ليس ماكميلان.. فهو سيكون مداوماً في المستشفى. لكن جوناثان

وكاتلين سيأتيان، مع زوجين شابين آخرين، أسرة موهير، وأسرة برايد، ثم هناك غرانت هيوارد العامل في وزارة الشؤون الخارجية.. إنه شاب بارز وأعتقد أنك ستتفقين معه جيداً.

ابتسمت آشلي في سرها.. يبدو أن مارتا لن تتوانى عن لعب دور «الخاطبة»!

سألت مبتسمة:

ـ هل هذه كل الأسماء التي يجب أن أتذكرها؟

قال ماك: لا.. لكننا نعتقد أن هذا يكفي لليلة واحدة.

ولمعت عيناه وهو ينظر إلى زوجته التي قالت بشيء من الحدة:

ـ أنت من اعتقد أن هذا يكفي.. كان يمكن أن أدعو الكثير بعد، تونيا ويندهام مثلاً.. لقد فكرت فعلاً بدعوتها لأنها سكرتيرة الحاكم ومن المفيد لك أن تعرفيها.. لكنها مؤخراً ترافق راندال حيثما ذهب.. ولأنه غائب هذا الأسبوع، قررت أن لا أدعوها.

أحست آشلي بصوتها يلتصق في حنجرتها: راندال؟

ـ أوه.. أنا آسفة.. إنه راندال هولمان في مكتب وزارة الخارجية وأحد المسؤولين هنا.

لم تهتز يد آشلي وهي تتناول ملعقة سلطة خضار من الطبق أمامها، وسألت:

ـ هل هو خاطب لتلك.. ماذا قلت اسمها؟ تونيا ويندهام؟

ـ لا.. لم يخطبا بعد.. ولو أنه شاب طموح جداً، وهو أصغر سناً من المركز الذي يشغله. تونيا قريبة لزوجة الحاكم وستفيده في مستقبله المهني.. لذا أعتقد أنهما سيتزوجان في النهاية، لكن لا يبدو على راندال الاستعجال.

وبخها زوجها:

ـ والآن مارتا.. لقد تماديت في القيل والقال.. سيكون أمام آشلي وقت طويل للقاء الجميع.. وستسر أكثر مع توافد السواح.

سرّت آشلي لتغيير الموضوع:

ـ وهل يأتي الكثير من السواح إلى هنا؟

ومرت بقية السهرة طويلة.. وما إن تمكنت، حتى ادعت التعب واتجهت إلى غرفتها.. ولم تتذكر مجريات الحديث ولا الطعم الغريب للأطباق التي أكلتها.. كل ما كانت تفكر به هو قول مارتا إنه غائب حتى الأسبوع المقبل، إذن لديها فرصة لتحاول أن تعرف قدر المستطاع عن عدوها قبل عودته. فهي فقط، عبر معرفة أي شيء عنه، ستجد نقطة الضعف التي ستوصلها إلى تدميره.

لكن كيف السبيل إلى تدمير رجل؟ كيف ستبدأ بتدمير رجل بحيث لن يتمكن من فعل أي شيء في حياته؟ ببطء أخرجت صورة أخيها من الدرج الذي وضعتها فيه.. لقد أصرت أمها أن تحملها معها ولو أنها في الواقع غير ضرورية، فهي تعرف عن ظهر قلب القسمات الشابة الوسيمة. كان يومها في الثالثة والعشرين يوم قتل، ويكبرها بثماني سنوات، وكان الحبيب المدلل لها ولأمها. لم يكن يشبه آشلي، فقد كان بن يماثل والدهما الأسود الشعر الذي مات وآشلي صغيرة جداً.. ربما لهذا السبب كانت أمها تفضله، لكن دون أي ضغينة منها لأنها هي أيضاً كانت تحبه وتعتبره بطلها الأمثل.

وضعت الصورة على الطاولة الصغيرة قرب السرير ثم أخرجت دفتر الرسائل لتكتب رسالة مستعجلة لأمها تعلمها فيها أن كل شيء على ما يرام، وأن راندال هولمان لا يزال في ترييناكا.. وأضافت أنها وصلت بسلام، ثم أعادت الصورة إلى الدرج واندست متعبة في السرير. وبدت الليلة حية بأصوات غريبة، نقيق الضفادع المستمر في الأجمات وحفيف النسيم الخفيف بين أوراق أشجار البرتقال.. هذا المكان مختلف تماماً عن ضجيج الناس والسيارات التي اعتادت عليها آشلي، وبقيت صاحية لزمن طويل.. لكن الإرهاق أخيراً تغلب عليها، وكان نومها مضطرباً غير مريح.

بدأت الحياة على الجزيرة في ساعات الفجر الباردة، ولم يمض وقت طويل حتى كانت الخادمة لاينت تطرق باب آشلي لتوقظها.

ـ صباح الخير آنسة.. الفطور سيكون جاهزاً بعد نصف ساعة.

اغتسلت آشلي بسرعة وارتدت تنورة بيضاء مكسرة وبلوزة، وربطت

شعرها إلى الوراء بعيداً عن وجهها.

كان الفطور وجبة غير رسمية، وكانت مارتا لا تزال في روبها المنزلي بينما ماك يقرأ صحيفة محلية وهو يأكل.. اختارت آشلي عصير برتقال طازج وأرغفة مستديرة طازجة.

قالت مارتا:

ـ لقد قطفت لاينت البرتقال طازجاً هذا الصباح من الحديقة.. وخبزت الخبز بنفسها.

ـ رائحته لذيذة.

ابتسمت مارتا وهي تراقب آشلي تتناول رغيفاً آخر.. وقالت:

ـ لا تدعي ماك يقنعك بالعمل في يومك الأول هنا.. إنه متحمس جداً في حب مستشفاه حتى أنه ينسى أن الآخرين ليسوا معتادين على الطقس، ويتوقع منهم أن يفعلوا ما يفعل.

ـ مهلك الآن مارتا.. من الطبيب هنا؟ سوف أعتني جيداً بالفتاة.. لسوف أقدمها فقط لبقية العاملين اليوم، وأجول بها على الأقسام كي تكوّن فكرة عن نوع الأمراض التي نعالجها. ثم سأعيدها للغداء ولترتاح، ويمكنك ساعتها أن تريها بعضاً من الجزيرة بعد الظهر. لكن لا تظني أنك قادرة على حرماني من مساعدتي الجديدة كل يوم يا امرأة.. أعرف تماماً أنك تفضلين بقاءها في المنزل معك.. لتعرفيها على أصدقائك ولتأخذيها للتسوق معك في بلدة ترييناكا.

كان يلوّح باصبعه في وجه زوجته، فسارعت إلى تجعيد أنفها له ثم دخلت المطبخ لتعطي بعض التعليمات للخادمة ولفيليب الذي وصل لتوه، لكنها وقفت بالباب تلوّح لهما وداعاً وهما ينطلقان إلى المستشفى في سيارة الطبيب.

سألها ماك وهما يمران بضواحي البلدة: أتعرفين القيادة فتاتي؟

ـ أجل.. تعلمت وأنا أمارس الطب العام في انكلترا.

ـ أنا مسرور لسماع هذا.. فستحتاجين إلى سيارة لزيارة الزبائن في الجانب الآخر من الجزيرة. سأضع طلباً لسيارة من مكتب الإدارة.. في الوقت الحاضر

سيرافقك أحد السائقين متى أردت.. مارتا لديها سيارتها الصغيرة الخاصة وأنا متأكد أنها ستكون مسرورة بإعارتها لك.

كانت البلدة مكتظة بالناس المسرعين كل إلى عمله..

بعد أن شق طريقه بكل براعة عبر زحام السيارات والمارة، أوقف الطبيب السيارة أمام مبنى طويل منخفض هو المبنى الرئيسي للمستشفى.. وأحست آشلي برعشة إثارة تجري في داخلها لرائحة المطهرات المألوفة التي استقبلتهما لدى دخولهما.. وقفت فتاة شابة مبتسمة، شعرها البني الفاتح مقصوص في طراز رجالي، لتحييهما من وراء منضدة غرفة الاستقبال.

ـ صباح الخير دكتور.

صوتها ناعم وأجش يضفي المزيد من السحر على مظهرها الجذاب.

ـ صباح الخير آرينا.. هذه مساعدتي الجديدة دكتور باست، وهذه آشلي، آرينا قمة الكفاءة، وتدير المكان كالساعة، لذا لن تجرؤي على التأخر دقيقة.

ضحكت الفتاتان وتصافحتا. وقالت الفتاة:

ـ إذا كان هناك ما تريدين معرفته، دكتور باست، أرجو أن لا تترددي في سؤالي. فأنا هنا وراء المكتب طوال النهار.

ابتسمت آشلي بدفء وقد أعجبتها الفتاة الجميلة:

ـ شكراً لك.. سأتذكر هذا بكل تأكيد.

تركا الفتاة ودخلا مكتب ماك، حيث وجدت معطف عمل أبيض منشّى جاهزاً لها.. وانطلقا في جولة على العنابر والأقسام، وسرعان ما انغمست في التعرف على الممرضين والممرضات والمحافظين على النظام. كان وجودها في مستشفى مرة أخرى وكأنها تعود إلى بيتها.. وأحست بالراحة التامة فهذا عالمها وهي تحبه.

لاحظ ماك النظرة المشعة المهتمة في العينين الكهرمانيتين، ورد على أسئلتها الذكية المهتمة وبدا عليه الرضى.. كانت الشكوك قد ساورته حين عرف أنه سيحصل على مساعدة متخرجة حديثاً، ومجرد فتاة صغيرة.. لكنه الآن أحس بالقناعة.. لسوف تنجح.

قابلا المساعد الأول للدكتور ماك في عنبر العمليات النسائية، ماكميلان كينغ، الذي كان قد أنهى لتوه الفحوصات العادية على امرأة ستجرى لها جراحة.. كان شاباً طويلاً في حوالى الثانية والثلاثين وسيماً ساحراً، لكن هناك خطوط قسوة حول فمه.. ورفع حاجباً ساخراً حين قُدّم إلى آشلي، وأخذت عيناه تتفحصان وجهها بوقاحة:

ـ حسن جداً.. الأمور بدأت تتحسن.. أنت دكتورتي الشابة العزيزة، سوف تجعلين الإقامة في ترينا كا تجذب الاهتمام.

ولم تستطع آشلي منع نفسها من الاحمرار خجلاً. لكن ماك قال ينصحها:

ـ لا تشغلي بالك بهذره فتاتي.. إنه يمثّل ليعطي الانطباع بأنه رجل خبير بالدنيا.. لكنه في الواقع يخاف النساء حتى الموت.. فلنعد ونرى إذا كان بإمكان آرينا أن تدبر لنا بعض القهوة.

لدهشة آشلي، لم يحاول ماكميلان كينغ إنكار ما قاله الطبيب المسن، بل نظر إليها ملياً ولحق بهما إلى المكتب حيث وجدوا صينية قهوة جاهزة تنتظرهم.. كان الحديث عموماً عن العمل، وسرعان ما أدركت آشلي أن الدكتور كينغ يعرف عمله، وأنه بالرغم من تصرفه المترفع، فالرجلان يشكلان فريق عمل ممتاز..

قال ماك لها:

ـ نحن نقوم بزيارات منتظمة لعيادات طبية أسسناها على الجزر الأصغر حجماً، وأنا آمل أن تتمكني في النهاية من القيام بمثل هذه الزيارات، وأن تؤسسي حملة توعية بين النساء المحليات.. وسيكون هذا تحدياً كبيراً، فالكثير من الناس لا زالوا يتأثرون بالأديان القديمة، والسحر الأسود والشعوذة، خاصة من يعيش في الجزر النائية.

ثار اهتمام آشلي على الفور لخططه، وسألته بلهفة عنها بحيث ضحك ماكميلان بشدة.. حتى أن ماك رفع يديه في الهواء بخيبة أمل زائفة.

ـ هناك وقت طويل لبحث هذا فتاتي.. هذا الصباح يجب أن أذهب إلى المرفأ لأستلم بعض المواد الطبية، لذا سأتركك مع ماكميلان.. فاسأليه كل ما

بعد رحيل ماك، عاد ماكميلان إلى سخريته، لكن آشلي لم تكن على استعداد لتحمل هذا . . وقالت بحزم:

ـ اسمع . . قد تعتقد نفسك إنك موجود على الأرض لغرض واحد: إيقاع النساء في غرامك . . لكن لا تتوقع مني أن يسيل لعابي . . جئت إلى هنا لأعمل، وبإمكاني العمل إما معك أو ضدك، الأمر عائد إليك.

بدا مذهولاً للحظة، لكن سرعان ما ظهرت بسمة على وجهه:

ـ أنا آسف، لقد قيمتك بشكل خاطىء. معظم الفتيات العازبات اللاتي يأتين للعمل هنا أو في إجازة، يبدو أن لهن غرض واحد في رؤوسهن . . وهو بالطبع: الزواج، وكلما كان الضحية أكثر ثراء كان ذلك أفضل لهن.

سرعان ما استقر التفاهم فيما بينهما، ووجدته آشلي مرافقاً مسلياً، وهو يخبرها قصصاً عن بعض المرضى الذين مروا به خلال عمله في المستشفى.

قال:

ـ أتوقع أن تواجهي حشداً من النساء الأوروبيات يأتين لرؤيتك بأعذار واهية . . وستجدين أن ما يشكين منه، هو أن لا شيء يفعلنه . . معظمهن يصبن بالوسواس المرضي ما إن يصلن سن الأربعين . . إلا إذا تمكن من الثورط في علاقة حب طبعاً . .

ضحكت آشلي لكلامه، لكنها لم تستطع سوى أن تتساءل ما الذي أوصله إلى مثل هذه العدائية للنساء.

عاد ماك في الوقت المحدد لإعادتها إلى «البنغلو» لتناول غداء خفيف . . لكنه أصر على أن تبقى مع مارتا بدلاً من العودة معه إلى المستشفى بعد الظهر، بعد ذهابه جعلتها مارتا تذهب إلى غرفتها لتستريح. خلعت آشلي ثيابها واستلقت على السرير بثيابها الداخلية، تنوي التفكير بكيفية تطوير برنامج الرعاية الأسرية . . لكنها سرعان ما غفت في نوم عميق دون أحلام، قررت مارتا بعد ساعتين أن لا تزعجها منه.

حين استيقظت أخيراً، لم يكن هناك وقت سوى لمساعدة مارتا في ترتيب

الزهور التي التقطتها من الحديقة في آنية كبيرة، وضعتاها في غرفة الجلوس وغرفة الطعام . . بينما كان فيليب يعلق أنواراً ملونة على حافة الشرفة.

قالت مارتا:

ـ سنتناول الطعام في الداخل . . لكن معظم الحفلات تتمدد بالتدريج نحو الحديقة . . حفلات الشواء هنا مشهورة جداً . . ماك وأنا نقيم عادة حفلة أو اثنتين خلال الصيف حين يكون الولدان في المنزل.

ردت آشلي:

ـ يبدو لي هذا مرحاً . . لم أحضر مثل هذه الحفلات من قبل.

ـ إذن يجب أن نقيم واحدة في وقت قريب قبل أن يدعوك الجميع إلى حفلاتهم.

ـ أوه مارتا . . لم أكن أعني أن . .

ـ لا . . عزيزتي . . أعرف أنك لم تكوني تطلبين مني شيئاً . . لكن آن الأوان لنقيم حفلة حقيقية، ومجيئك للسكن معنا أعطاني عذراً جميلاً، ولا يمكن لماك أن يرفض.

بدت على مارتا دلائل الانتصار فضحكت آشلي وذهبت لتغير ملابسها استعداداً للعشاء.

كان أول المدعوين الواصلين ذلك المساء جوناثان وكاتلين والكرز، وبدا بسرعة أن كاتلين هي المسيطرة. كان شعرها أسود قصيراً جداً، نحيلة بقسمات بارزة تعطيها نظرة الجوع الدائم . . هذا إضافة إلى ابتسامتها المتصلبة وحركات يديها اللتين لا تهدآن، مما جعل آشلي تتساءل عما إذا كانت إحدى النساء اللواتي وصفهن ماكميلان «بالمحبطات» . . بدا زوجها هادئاً جداً، وابتسم لآشلي بود وبدأ يرحب بها في تريناكا، فقاطعته كاتلين بنفاد صبر لتسألها أين كانت تعيش في انكلترا.

كانت آشلي ترد عليها حين نادتها مارتا لتلتقي الزوجين الآخرين اللذين وصلا لتوهما . . ثم بام وجايكس موهير، ومع أنها وجدت الجميع اجتماعيين ودودين، إلا أنها لم تجد أي شيء مشترك بينها وبينهم، لذلك أحست بالارتياح

حين قدمت إلى آخر الضيوف غرانت هوارد، والذي دعي كما هو واضح لبرافقها.. حياها بشكل رسمي ولم يحاول السيطرة على رفقتها، بل استدار ليحيي الآخرين لفترة قبل العودة إلى جانبها.

سأل: هل رأيت شيئاً من الجزيرة بعد؟

ـ لا.. القليل جداً.. كانت مارتا ستأخذني في جولة بالسيارة بعد ظهر اليوم.. لكن يبدو أنني كنت متعبة ونمت لساعات.

ـ هذا بسبب الحرارة، ستجدينها مزعجة في البداية.

كان وجهه شديد السمرة والشمس أحرقت شعره الأشقر إلى درجة البياض تقريباً.

قالت آشلي بأدب: لا بد أنك تتعرض لأشعة الشمس كثيراً.

لمعت عيناه الزرقاوان بخبث:

ـ هذا ظاهر عليّ.. أليس كذلك؟

رأت آشلي أنه يضحك لها وردت الابتسامة. ثم تبادلا الحديث بسهولة إلى أن حان وقت الطعام، حيث تحول الحديث إلى العموميات، ما عدا بضع ملاحظات لاذعة من كاتلين والكرز خلقت فترات صمت مربكة.

قُدمت القهوة على الشرفة وجاءت كاتلين لتجلس إلى جانب آشلي، تنظر إليها مقيمة...

ـ هذا فستان جميل وصغير. أعتقد أنك اشتريت أشياء كثيرة من لندن قبل مجيئك إلى هنا؟

لم تتح الفرصة لآشلي كي ترد، فقد أكملت المرأة بلؤم:

ـ المحلات في تريناكا لا فائدة منها بتاتاً.. معظم الملابس مستوردة وطرازها قديم، كلها بنطلونات برمودا قصيرة وقمصان صيفية بألوان مقرفة.. كنت أفكر أن أفتح بوتيكاً صغيراً في البلدة أعرض فيه ثياباً إنكليزية حقيقية.. لكن لم يُسمح لي بالمضي في المشروع.

ـ ولماذا؟ ألم يرغب زوجك في تمويلك؟

ـ جوناثان؟ يا للسماء! ولماذا يجب أن يكون له قول في هذا؟ لا.. لقد

عارضتني بريتانس سمبسون زوجة الحاكم.. فالعجوز اللعينة متمسكة بالطراز القديم وتؤمن أن زوجات موظفي الدولة لا يجب أن يتورطن لا من قريب ولا من بعيد بشيء اسمه «التجارة» وتتوقع منا قضاء معظم أوقاتنا في شرب القهوة وحفلات الكوكتيل.. حتى أنها تجرأت على الطلب مني أن أذهب لأساعد المحليين في تلك المستشفى الرهيبة!

ضحكت آشلي: مهلك.. أنا سأعمل هناك.. وتعرفين هذا.

بدا الأسف على كاتلين فوراً:

ـ يا إلهي.. أنا آسفة جداً.. لكن أرجوك لا تهتمي كثيراً بما أقول..

ردت آشلي:

ـ لكن هل اللايدي سمبسون امرأة متسلطة إلى هذه الدرجة؟

ـ أجل، وهي لا تريدنا أن نختلط بالسواح ولو أن عددهم قليل.. هذا المكان هو منفى حقيقي، حتى أننا لم يكن لدينا امرأة عاملة في الجزيرة من قبل، وأتساءل كيف ستكون ردة فعل العزيزة بريتانس نحوك.

قررت آشلي أن تتجاهل لؤم كاتلين، وقالت:

ـ مع ذلك، يبدو أن هناك الكثير من النشاطات الاجتماعية.. أذكر أن مارتا قالت إن الحاكم لديه سكرتيرة.. تونيا.. أليس هذا اسمها؟

ـ أجل.. تونيا ويندهام وهي أسوأ من اللايدي سمبسون.. إنهما قريبتان، تعرفين هذا. زوجة الحاكم تدرب تونيا على دورها المستقبلي، خاصة وهي تفكر بجدية في راندال.. ولو أنني شخصياً أعتقد أن بريتانس قد فعلت الكثير لتحقيق هذه العلاقة.

تسارعت نبضات آشلي وهي تطرح سؤالها بحذر:

ـ دورها المستقبلي في الحياة؟ يبدو لي أنه سيكون دوراً هاماً؟

ـ يا إلهي.. أجل.. راندال رجل طموح، لن يرضيه أقل من منصب السفير.. وبالطبع ستكون تونيا العزيزة النسخة الأصلية للسيدة سمبسون. ولماذا لا يكون جوناثان مثل راندال؟.. لست أدري، أعطيه كل التشجيع للحصول على مركز أرفع لكنه قانع بما هو عليه..

www.elromancia.com

ما هي إلا بعض دقائق، حتى أدركت آشلي أن كاتلين ما إن تبدأ الحديث حتى يمكن لها أن تستمر إلى ما لا نهاية.. وأنها لن تعرف منها المزيد عن عدوها.. هكذا، وبعد مقاطعة مهذبة، اعتذرت واختلطت ببقية الضيوف.

المعلومات الأخرى المثيرة للاهتمام حصلت عليها ذلك المساء من غرانت هوارد. كانت آشلي قد خرجت تتمشى في الحديقة إلى أن وصلت إلى سقيفة تحيط بها الزهور وتطل على منظر يأخذ الأنفاس للبحر وقد أناره ضوء القمر.

جلست على مقعد حجري وأخذت نفساً طويلاً عميقاً من الهواء العابق برائحة الزهور.. وهي تتطلع عبر الخليج إلى حيث أنوار البلدة تنعكس فوق المياه.. بدا لها هذا رائعاً.. وكأن كل من يعيش هنا، يجب أن يكون سعيداً على الدوام.. قانعاً. وكأن العواطف لا يمكن أن تكون مشتعلة، وترتكب الجرائم في مثل هذه البقعة الرائعة من العالم.. لكنها ابتسمت لخيالاتها، لقد رسمت صورة جنة ولا يوجد جنة على الأرض.. فقط في الأحلام.

تنهدت آشلي.. ثم شهقت دهشة لسماع صوت يقول لها في الظلام:

ـ لماذا التنهد؟ هل تشعرين بالاشتياق إلى انكلترا؟

ـ غرانت؟ لقد أجفلتني!

ـ آسف.. السيدة ماك ظنتك لست على ما يرام.. فأرسلتني لأرى إذا كنت بحاجة إلى مساعدة.

ـ هذا لطف كبير منها.. ومنك.. أعترف أنني وجدت الجو مزعجاً قليلاً فخرجت لأتنشق بعض الهواء النقي.. وأنا سعيدة لهذا.. لم أكن أعرف بوجود مثل هذا المنظر الجميل.

ـ أجل.. إنه منظر رائع.. أليس كذلك؟ هل تحبين الرياضات المائية؟

ـ أحب السباحة، لكنني لم أبحر في مركب أو أي شيء آخر.

ـ إذن يجب أن تغتنمي الفرصة لتتعلمي وأنت هنا. ولأنك تحبين السباحة، فستجدين أنك ستتمتعين بالغطس كذلك.. وإذا أحببت سأعطيك دروساً.

ابتسمت آشلي له:

ـ شكراً لك.. أظن أنني سأحب هذا.. هل تذهب للغطس دائماً؟

ـ أوه.. أجل.. أنا وراندال نذهب لنغطس مرتين في الأسبوع إذا استطاع الابتعاد عن المكتب.

ـ راندال هولمان؟ لم أكن أعرف أنه صديق مقرب منك.

ـ لم أقل إننا صديقان مقربان، لكننا نتمتع معاً بهذه الرياضة.. وبما أن من الخطر الغطس وحيداً، نجد من الملائم أن نفعل هذا معاً.

سألت بحذر: خطر؟ وهل هناك سمك قرش هنا؟

ضحك:

ـ لا.. أسماك القرش لا تصل إلى هنا.. الخطر هو في حصول حادث دون وجود من يساعدك. لو واجهت خطراً لا أرغب في أن يساعدني أحد سوى راندال.. إنه من النوع الذي يمكنك الاعتماد عليه دائماً في الحالات الطارئة.

تغير الحديث بعدها ثم عادا إلى المنزل. بعد وقت قصير بدأ المدعوون بالانصراف.. وبعد تمني ليلة سعيدة لمارتا وماك، تحضرت آشلي بسرعة للنوم وأطفأت المصباح الصغير قرب السرير.. لكن بدلاً من دخول الفراش، تقدمت لتفتح النافذة وترجع الستائر إلى الجانبين، لتتطلع مجدداً باتجاه البلدة ومنزل الحاكم المرتفع خلفها.

لقد عرفت أمرين مهمين عن عدوها: أن له سمعة الطموح في مهنته، وأنه شخص من الجيد وجوده مع المرء في مواقف حرجة. هذان الأمران لم يكونا متناسبين.. إنهما يصفان رجلاً من صنف مختلف تماماً.. وفكرت بالمسألة محتارة لفترة ثم قررت أن لا تستمر في التفكير.

مر اليومان التاليان بسرعة مع انغماس آشلي في حياة المستشفى في الصباح والذهاب في مشوار بالسيارة بعد الظهر، مع زيارات متقطعة لزوجات الموظفين الرسميين.. ووجدت آشلي أنهن كن فضوليات، وكن مهتمات بخلفيتها العائلية والاجتماعية، ولأنها ترغب في تجنب توريط أمها في أي شيء قد يحدث مستقبلاً، قالت لهن إنها تربت على يد عمة عجوز.

بعد ظهر اليوم الثاني، وبعد عودتها من جولة مع مارتا، أخذت السيارة إلى شاطىء هادىء، حيث أوقفتها تحت أشجار ظليلة وقالت لآشلي:

ـ ظننت أنك قد ترغبين في السباحة عزيزتي.. ولا أنصحك بالذهاب لوحدك.. لكن لا بأس في هذا أبداً إذا كنتِ معي أو مع إحدى الأخريات..

بعد السباحة قالت مارتا:

ـ لدي مفاجأة لك.. سيقيم الحاكم حفلة راقصة يوم السبت ولقد وصلتنا دعوة تشملك.. ستجدين المكان لطيفاً للرقص لكنه رسمي جداً بالطبع.

تابعت تتحدث عن أشياء أخرى، لكن آشلي كانت تجيبها دون تفكير.. حفلة راقصة في مقر الحاكم! من المثير لقاء الحاكم وزوجته، والأكثر أهمية لقاء الآنسة تونيا ويندهام التي تتحضر لتكون زوجة راندال هولمان.. زوجة سفير المستقبل.. وتساءلت كيف تبدو. طويلة متفاخرة، امرأة لا تخطىء أبداً.. شخصية لديها مشاعر بقدر ما لسمكة ميتة! النوع الذي يستحقه راندال هولمان بالضبط!

أدى حارس رسمي التحية بلباقة بينما كانت سيارة دكتور ماكينزي تدخل البوابة الحديدية المزخرفة وتسير في الممر الداخلي لتدخل المقر.. ما إن أصبحوا في الداخل حتى قادت مارتا آشلي إلى غرفة الملابس، حيث ألقت نظرة ناقدة على صورتها في المرآة.. كانت قد اختارت فستان سهرة من قماش الشوفين الواسع بلون التركواز الأنثوي جداً والذي يضفي إغراءً على جسمها النحيل الشاب، شعرها الذهبي مكوّم في مؤخرة العنق، وخطوط تبرجها الذكي تزيد من جمال عينيها وشفتيها.. لطالما أصرت أمها أن تعلمها كيف تتزين وتختار الملابس وأدوات الزينة المناسبة.

كانت قاعة الرقص في الطابق الأول، وكان ضابط شاب ينتظرهم على سفرة السلم، عرّف ماك عنه بأنه مساعد الحاكم وأعلن عن وصولهم بشكل رسمي.. في الواقع كان كل شيء رسمياً إلى درجة أحست آشلي أن عليها أن تنحني احتراماً حين قدمت للسير نوريس سمبسون وكادت لا تتغلب على الرغبة في الضحك.. رفعت نظرها لترى أن الحاكم يرد عليها بلمعان في عينيه، وأشرقت عيناها استجابة.

ـ أهلاً بك إلى الجزيرة آنسة پاست.. لا.. أنا أرفض أن أناديك

دكتورة.. سيدة شابة فاتنة مثلك لا يجب أن تشوه فتنتها بمثل هذا اللقب.. أصر على أن تراقصيني فيما بعد.. رقصة هادئة، ألا توافقين؟

وافقت آشلي مبتسمة واستدارت لتتعرف إلى زوجته التي حيتها بلطف متكبر.. وكان الرقص قد بدأ، وبعد تحية أسرة والكرز والمعارف الآخرين، ابتعدت آشلي على يد ماك الذي راقصها على أنغام موسيقى صاخبة والتفتت إليه ضاحكة ترجوه أن ينتبه لأصابع قدميها..

كان وجهها محمراً بجمال أخاذ وعيناها الكهرمانيتان تتراقصان مرحاً. فجأة أحست أنها مراقبة، فاستدارت لترى رجلاً طويلاً بكتفين عريضتين يرتدي بذلة بيضاء، يقف عند الباب الذي يصل إلى غرفة أخرى وعلى وجهه تعبير غامض، بينما عيناه الرماديتان تلاحقانها.. ومع أن نظرتها في اتجاهه كانت قصيرة، إلا أنها وعت على الفور كل تفاصيل وجهه.

مضت ترد على هذر ماك بمرح، لكن جسمها كله تشوش بمشاعر صارخة أعمتها وأصمّتها عن أي شيء سوى عن الكلمات التي ضجت في رأسها.. إنه.. عدوها! راندال هولمان هنا! أثارت صدمة رؤيته وهي لا تتوقع عودته قبل الأسبوع المقبل أعصابها. حاولت بكل جهدها أن تجمع ما تشتت من أعصابها.. لا بد أنه عاد أبكر مما هو متوقع..

لم تعد تجرؤ على النظر إليه مجدداً.. فلا داعي لهذا.. لقد رأته مرة واحدة من قبل.. تلك الليلة منذ عشر سنوات حين أصرت الشرطة على أن يأتي إلى المركز لتبرئة نفسه من اتهامات أمها.. ولقد فعل هذا بكل ازدراء.. بالكاد نظر إلى آشلي، الفتاة النحيلة الخائفة ابنة الخمسة عشر ربيعاً الواقفة وراء كرسي أمها. وهي واثقة أنه لن يتعرف عليها.. لكنها عرفته على الفور.. ولو أنه يومها كان في الخامسة والعشرين، وأكثر نحولاً، وأقل رجولة.. ولقد انطبع وجهه في ذاكرتها إلى الأبد.

***

٢ ـ خائفة من قول نعم

انتهت الرقصة السريعة أخيراً. . واغتنم مالك الفرصة ليقدم آشلي إلى عدد من الضيوف الآخرين. . لكن سرعان ما انضم إليهما غرانت هوارد الذي طلب آشلي للرقصة التالية. . أمسك بها بحذر وكأنها قطعة خزف صيني فاخرة وقال يذكرها:

ـ لا تنسي وعدك لي بالمجيء إلى درس الغطس. . ما رأيك بالغد؟

ـ سيكون هذا رائعاً.

كانت تحاول جهدها كي يأتي ردها طبيعياً. . لكن صوتها بدا مختنقاً في حنجرتها، ولزمها بعض الشجاعة لتوجه نظرة جانبية إلى الباب، لكن المكان كان فارغاً. . لقد ذهب. . وتمكنت من الاسترخاء قليلاً، مع ذلك فضربات قلبها المهتاجة كانت تصخب بجنون.

حين انتهى الرقص قادها غرانت جانباً. . لكن شخصاً ما قاطعهما من خلف آشلي. . ولم تكن مضطرة للالتفات لتعرف من هو. . حذرتها حاسة عميقة داخلية حتى قبل أن يتكلم راندال هولمان.

ـ غرانت! كيف حالك؟ أرى أنك حققت تقدماً عليّ وأنا غائب. . لكن الآن وقد عدت فأنا مصرّ على أن تقدمني، وتسمح لي أن أعوض عن الوقت الضائع.

رفعت آشلي عينيها لترى عينين رماديتين باردتين تنظران بحيرة في عينيها. . وبابتسامة سخط فعل غرانت ما طلب منه، وأمسك راندال يد آشلي بقبضة شديدة، فأحست بارتجاف لم تستطع السيطرة عليه لملامسة عدوها.

قال: حقاً غرانت. . أنت لم تحضر للآنسة پاست شراباً بعد.

احمر وجه غرانت قليلاً وأسرع مبتعداً إلى المقصف، تاركاً آشلي تشعر أنها وحيدة يائسة. . وكأن لا أحد آخر في الغرفة سواها وقاتل أخيها. .

ـ أتعرفين آنسة پاست. . لا أستطيع منع الإحساس بأننا التقينا في مكان ما قبل اليوم.

غمرها الذعر. . لا يجب أن يتذكر. . لا يجب. . وإلا سيضيع كل شيء قبل أن يبدأ. . وأعطاها الخوف قوة فردت بقول أول ما خطر ببالها:

ـ حقاً سيد هولمان. . لقد سمعت أن هذه الجزر نائية معزولة. . لكنني لم أتوقع من سكانها استخدام مثل هذا الأسلوب الذي يعود إلى ما قبل التاريخ!

للحظة بدا مجفلاً، لكن سرعان ما ظهرت نظرة تسلية في عينيه:

ـ هذا في الواقع يبدو وكأنه مشهد من فيلم رديء. . أليس كذلك؟ وأخشى أن لا يكون صحيحاً. . لدي إحساس أنني لو شاهدتك من قبل، لكنت تذكرتك بكل تأكيد آنسة پاست. حتى الاسم لا يذكرني بشيء.

تنفست آشلي متنهدة بصمت وارتياح. . لا. . لن يتذكر الاسم. . فأمها كانت قد قررت استخدام اسم عائلتها بعد انتقالهما من «آلنويك». . وكان يوم الحادثة ماديسون بدلاً من پاست.

كان لا يزال ينظر إليها ملياً، فرفعت ذقنها متحدية وردت على تفرسه بها بثبات. . لحسن الحظ عاد غرانت بالشراب، فأخذ منه كوبها دون أن يلاحظ أحد الاحمرار في كفها حيث كانت أظافرها مغروزة بعمق.

قال غرانت:

ـ راندال. . هل تمانع في إعارتي بذلة الغطس الإضافية عندك غداً؟ لقد وعدت بتعليم آشلي الغطس وخزان الهواء عندي فارغ، ويحتاج إلى إصلاح.

ـ بالتأكيد. . وأين تريد أن تغطس؟

ـ في المكان المعتاد، شاطىء «موليتير». . سآخذ البذلة من عندك وأنا ذاهب غداً.

كان على وشك المتابعة حين تقدمت اللايدي سميسون إليهم وبرفقتها فتاة

في حوالى الثلاثين من عمرها، شعرها بني أنيق، ووجهها جميل.. لكن عينيها بدتا متعبتين.

ـ دكتورة باست، لا أظنك التقيت ابنة عمي الآنسة تونيا وبندهام؟

هل أخطأت آشلي حين اعتقدت أن السيدة شددت على كلمة «دكتورة»؟

بعد التعارف الرسمي شاغلت اللايدي راندال وغرانت بالحديث، بينما تبادلت الفتاتان الأحاديث الرسمية المهذبة.. ثم أخذت المضيفة آشلي بلباقة لتعرفها على بعض من وصل متأخراً من الضيوف.. قدم الطعام في غرفة أخرى حيث انضمت آشلي إلى غرانت وأسرة ماكفرسون وأصدقائهما.. ولاحظت جلوس راندال على طاولة منفصلة مع أسرة الحاكم مع عدة رسميين كبار، وبالطبع تونيا التي جلست إلى جانبه، وبدت أنها تشاركه حديثاً حميماً، من الطريقة التي كانت تميل فيها إليه وتنظر بلهفة إلى وجهه.

عند عودتها إلى قاعة الرقص، رقصت آشلي مع السير موريس، ووجدته مرحاً، عاملها كفتاة صغيرة، رافضاً أن يأخذ بجدية واقع ممارستها لمهنة الطب.. وقال مصراً:

ـ كلام هراء عزيزتي.. سرعان ما تخطفين أحد مساعدي العزاب وتنشئين منزلاً لك.

لم تحاول آشلي أن تجادله.. لقد التقت بمثل هذا الطراز من قبل ولن تحاول معه النقاش المنطقي.

كانت الحرارة أكثر مما هي معتادة عليه، فخرجت إلى أبواب الشرفة المفتوحة على مصراعيها نحو الحديقة، ووقفت هناك تلوّح بلطف بمروحتها الورقية الجميلة التي أعطتها مارنا لها لهذه الأمسية.

ـ آنسة باست.. هل لي بهذه الرقصة؟

التفتت آشلي لترى راندال هولمان يقف إلى جانبها.. وعرفت فجأة أنها لن تستطيع الرقص معه.. لن تستطيع تحمل إحاطة ذراعي هذا الرجل بها في وقت هي تكرهه، وتريده أن يزحف تحت قدميها ليتوسل الغفران لسنوات العذاب التي تسبب بها لأمها.

ردت ببرود: لا.. شكراً لك سيد هولمان.. فأنا أجد الحرارة خانقة.

لكنه لم ينصرف.. بل وضع يده تحت مرفقها وأخرجها إلى الشرفة:

ـ إذن سوف تتمتعين بنزهة في الحديقة.

رأت درجات حجرية تقود إلى ممر عبر الحديقة الجميلة.. وسارا بصمت، ثم شهقت ابتهاجاً دون إرادة منها، بعد مرورهما تحت قنطرة من النباتات المتعرشة المزهرة، لظهور بركة ماء تتوسطها نافورة مضاءة بأنوار ملونة، من تحت الماء، وتمثال طفل مجنح يلعب المزمار في قمتها.

قال لها بلهجة غموض:

ـ هناك تقليد يقول بأنك إذا رميت قطعة نقدية إلى النافورة وتمنيت شيئاً، فسيتحقق. هاك.. سأعطيك نقداً معدنياً لتتمني شيئاً.

أمسك يدها ووضع قطعة نقد معدنية فيها، ثم أقفل أصابعها فوقها.

ببطء رفعت رأسها لتنظر إليه حيث جلس على حافة البركة.. وسألت:

ألن تتمنى شيئاً؟

هز رأسه نفياً بثبات:

ـ أنا لا أعتمد على الحظ.. إذا أردت شيئاً، أفعل ما بوسعي لأحصل عليه.. لكنك لم ترمي النقود وتتمني بعد.

ـ لا أظن أنني سأفعل.

قال ساخراً: هل تخشين أن لا تتحقق الأمنية؟

ـ لا.. بل أخشى أن تتحقق! هل لنا أن نعود الآن؟

استدارت دون أن تنظر إلى الخلف عائدة من حيث أتت إلى قاعة الرقص.

لم تنم آشلي تلك الليلة، لكنها ابتسمت بطريقة ودية حين جاء غرانت ليأخذها في الصباح التالي.. وبدا لها أن سكان الجزيرة كلهم خارج بيوتهم والسيارة تشق طريقها نحو الشاطىء الذي اختاره لإعطائها أول دروس الغطس.

أخذ غرانت يناور ببراعة في طريق منحدرة، وشهقت آشلي ابتهاجاً وهو يتوقف عند جون صغير رماله مرجانية بيضتها الشمس.. وراءها أشجار النخيل،

وهناك برك ماء صغيرة بين الصخور في الخلف تركها المدّ، فيها مجموعة ضخمة من الأصداف المزخرفة كانت تلمع بألوان رائعة وتدوي بصوت صدى الأمواج حين رفعتها آشلي إلى أذنها. . كان وجهها متهلّلاً كطفلة، واستدارت إلى غرانت لتريه ما وجدت فوجدته يراقبها وتعبير إعجاب في عينيه. . تصلبت على الفور وبدأت تفرغ السيارة بحيث اضطر إلى مساعدتها. . إنها لم تفكر به بعد كرجل. . بل عرفت أنها ستتقبله فقط كصديق. . ولا تريد أية علاقة قد تتطور لتعقد هدف وجودها في تريناكا. . مشاعرها الخاصة يجب أن تبقى تحت سيطرتها بالكامل، إلى أن تجد طريقة للانتقام من راندال.

أخذ غرانت يشرح لها عمل كل أداة على حدة. . ثم خاضا في الجون إلى أن وصل الماء إلى صدر آشلي، وعلمها كيف تسبح ورأسها تحت الماء لتتنفس فقط عبر أنبوب القناع. . وجدت هذا مربكاً في البداية لكنها بالتدريج تعلمت. . حين فتحت عينيها تحت الماء شهقت دهشة وابتلعت الماء. . فقد أصبح البحر فجأة حياً، وأخذت تنظر بذهول إلى الأسماك الملونة المبهرجة التي تسبح في قاع البحر.

حين بدأت تتنفس بشكل طبيعي، أخذها غرانت إلى بعض الصخور، حيث بالإمكان التفرج على بعض أنواع الأسماك والصدف التي تسكن التجاويف. . وأحست آشلي بالبهجة لرؤية عالم ما تحت الماء، بحيث أنها تمنت لو تبقى هكذا طوال اليوم. . لكن غرانت قال لها مبتسماً إنها يجب أن تأخذ الأمور بلطف في البداية، وعادا إلى الشاطىء.

بدا دفء الشمس نعمة بالنسبة لآشلي وهي تخرج من الماء. . ورفعت يديها لتخلع القناع وتنفض رأسها لينسدل شعرها على كتفيها. . ببطء فتحت عينيها وبدأت تسير في المياه الضحلة. . ثم توقفت بجفلة وتوترت أعصابها. . كان راندال هولمان يستند بعفوية إلى سيارته يدخن سيكارة بهدوء، كان يرتدي قميصاً واسعاً بلون العاج، وبنطلون «شورت» قصير. . وبدا برونزي اللون بارز العضلات، حيث يقف ينتظر أن يصلا إليه.

قال:

- آسف لأنني لم أكن في المنزل ساعة مررت لأخذ المعدات غرانت. . لقد اضطررت إلى الذهاب إلى الميناء بعجلة. . لذا فكرت أن آتيك بها بنفسي.

قال غرانت بغير حماس:

- شكراً لك. . هذا لطف منك. . إننا على وشك أن نأخذ استراحة، هل تبقى وتتناول معنا القهوة؟

- سأكون مسروراً جداً. . هذا إذا لم تكن الآنسة باست تمانع؟

ردت بأدب:

- بالطبع لا. . لطف منك أن تأتيني بأنابيب الأوكسجين.

تشاركا شرب القهوة التي جاء بها غرانت وتبادلا أطراف الحديث لفترة. . ثم خلع راندال قميصه ليكشف عن صدر قوي وذراعين بارزي العضلات. وقال يمد يده بالقميص إلى آشلي:

- هاك. . ارتدي هذا. فلو بقيت في الشمس مدة أطول فستصابين بالحروق.

- لكنني لم أجلس هنا أكثر من عشرين دقيقة!

قال بحزم: هذا كثير لليوم الأول. . ارتديه.

نظرت ساخطة إلى عينيه، وعرفت بقلب هابط أن هذا الرجل سيتمكن على الدوام من فرض إرادته عليها. . وأحست فجأة أنها ضعيفة ووحيدة. ثم عادت إليها قدرتها على المرونة، وردت ببرود:

- شكراً لك. . معي روب منشفة في السيارة.

تطوع غرانت: سآتيك به.

وذهب ليحضر الروب.

لم تنظر لترى ردة فعل راندال، لكنها ابتسمت لغرانت ابتسامة ساحرة حين عاد. . وظنت أنها سمعت راندال يضحك ضحكة خفيفة ساخرة. . سرعان ما استأذن للانصراف. وتابع غرانت معها الدروس بأن ألبسها القناع الخاص بقارورة الأوكسجين، لتعتاد على وزنها قبل تجربتها في الماء. . لكنها وجدت هذا مرهقاً، وكانت مسرورة حين أنهى غرانت التمارين وأعادها إلى المنزل مع موعد

قادم للأسبوع المقبل، هذا إذا سمحت لها التزاماتها في المستشفى.

كان الدكتور ماكميلان كينغ يعيش في أحد الأكواخ المسماة بالبنغلو في أرض المستشفى.. كي يكون قريباً في حال حدوث أي شيء طارىء خلال الليل.. وأصبحت آشلي الآن تعمل دواماً كاملاً في المستشفى.. بعد ظهر أحد دعاها ماكميلان إلى البنغلو لشرب القهوة وتفحص لوحة يمتلكها.

ـ إنها لفنان محلي.. رجل فرنسي زار الجزيرة خلال رحلة بحرية له منذ عشرين سنة، وأحب المكان كثيراً فترك السفينة وبقي هنا منذ ذلك الوقت.. إنه كبير في السن قليلاً الآن.

أخذت آشلي منه اللوحة لتضعها فوق كرسي على الشرفة.. ثم تراجعت إلى الخلف لتتفحصها.. كانت قماشة اللوحة بعرض قدمين مربعين، لكن الرسام الفنان ملأها بالحياة والألوان لساحة البلدة يوم السوق.

قالت بحماس:

ـ إنها فعلاً لبلدة تريناكا.. أليس كذلك؟ لا بد أن لديه عين حساسة أمام التفاصيل.. لكن، كل شيء فيها رمزي.

ـ لك ذوق فني رائع.

أجفلها الصوت من خلفها واستدارت بسرعة لترى راندال يقف عند أسفل السلم الحجري.. لم تسمعه يقترب فوق العشب.. جعلها سخطها لتقدمه المفاجىء ترتجف. صعد السلم ووقف إلى جانبها ينظر إلى اللوحة ثم تابع:

ـ أجل.. هذه أفضل لوحة من أعمال العجوز.. ربما رسمها منذ عشر سنوات على ما أظن، لأن يديه ليستا ثابتتين الآن.

استدار إلى ماكميلان: من أين اشتريتها؟

ضحك ماكميلان:

ـ أوه.. لا.. لن تعرف.. لن أكشف المصدر.. فاذهب وجد لنفسك لوحاتك الأصلية، راندال.

لكن راندال لم يتراجع:

ـ لا تخف سأجد المصدر.. لن تستطيع إخفاء شيء كهذا لمدة طويلة.

التفت مجدداً إلى آشلي يسألها:

ـ هل أعجبتك اللوحة؟

ـ كثيراً.. وسأحب جداً أن أجد لوحة مماثلة لأخذها معي حين أعود.

ـ وهل تتكلمين عن العودة منذ الآن؟ عقد عملك يلزمك بثلاث سنوات.. أليس كذلك؟

ردت بخفة:

ـ أجل.. بالطبع، لكن قد يستغرقني سنوات ثلاث لأجد واحدة.

قال راندال بعد صمت:

ـ من يعلم.. ربما تقعين في الحب وتقررين البقاء.. في حب تريناكا بالطبع..

نظرت إليه مقطبة.. هل يحاول متعمداً إزعاجها بالمزاح؟ عادت إلى تصرفها المهني البارد، وقالت:

ـ لا بد أنك تنتظر لتتكلم إلى الدكتور كينغ.. لذا سأعود إلى المستشفى.

استدارت لتنزل من على سلم الشرفة، لكنه وضع يده على ذراعها يوقفها:

ـ لقد جئت لأراك أنت آنسة پاست.. لقد جئتك بسيارة.. تعالي لتعطيني رأيك بها.

اشتعلت كل أعصابها ناراً ويده لا تزال تحت مرفقها ليقودها إلى أمام المستشفى.. ولم تعد تتحمل لمسته لها أكثر.. فرفعت ذراعها وكأنها تسوي شعرها، ثم ابتعدت عنه قليلاً بحيث أنها حين أنزلت يدها لم يعد هناك مجال للملامسة.. نظرت نظرة جانبية سريعة إليه أظهرت لها التواء صغيراً في جانب فمه.

قال: ها هي.. ما رأيك؟

كانت سيارة «ميني» حمراء براقة وجديدة، فرش مقاعدها أسود.. وسقفها جلدي يمكن إرجاعه إلى الخلف لإدخال المزيد من الهواء.. أبدت آشلي موافقتها فوضع المفاتيح في يدها.

ـ عظيم.. اصعدي فيها لنجربها.

نظرت إليه برعب. . الذهاب بالسيارة مع هذا الرجل هو آخر ما ترغب فيه.

ـ أخشى أن لا أتمكن من ترك المستشفى الآن. . لأنني في الخدمة.

ـ كلام سخيف. . ماكميلان سيتولى أمر أي شيء طارىء.

بدأت تحس بالانزعاج:

ـ لو كنت رجلاً. . فهل كنت ستزعج نفسك لترى كيف أتولى مسؤولية سيارة؟

ضحك:

ـ ربما لا. . لكن بما أن معظم النساء لا يفهمن شيئاً عن ميكانيك السيارة، أريد أن أطمئن نفسي أنك على الأقل ستعرفين كيف تغيرين السرعة فيها. .

تقدم إلى باب السائق وفتح الباب لها. . نظرت آشلي إليه متحدية فقال بصوت ساخر:

ـ بإمكانك الظن بي ما تشاءين، آنسة پاست. . لكنني مصرّ على مرافقتك. . لذا من الأفضل أن نبدأ.

هزت كتفيها وصعدت، أغلق لها الباب واستدار إلى المقعد الآخر. . لكنها تجاهلته وهي تعدل مقعدها وتتأكد أن المرآة في الاتجاه الصحيح بالنسبة لها. . بهدوء، ربطت حزام المقعد وتفحصت المكابح. . لقد قادت سيارات مماثلة من قبل وهي واثقة تماماً من قدرتها. . دون انتظار أن يتكلم، أدارت المحرك وقادت السيارة نحو الطريق الموصلة بعيداً عن البلدة.

وهي تركز على قيادة السيارة ومعالم الطريق غير المألوفة لها، نسيت الرجل الجالس إلى جانبها. حين طلب منها أن تتجه إلى اليسار، أجفلت وترنحت السيارة قليلاً مما جعلها تمسك المقود بقوة إلى أن أصبحت عقد أصابعها بيضاء. . وهي تعض شفتها، تمكنت من اتباع تعليماته. . وبعد تسلق تلة شديدة الانحدار، وصلا إلى فسحة مفتوحة، حيث طلب منها أن تتوقف في قطعة أرض على حافة الطريق.

أطفأت المحرك وتعمدت أن تجعل نفسها تسترخي.

ـ قل لي. . هل تسلم السيارات عادة شخصياً؟ ظننتك أحد المسؤولين الكبار في الجزيرة!

ـ ليس في العادة. . لكني قررت أن يكون هناك استثناء في حالتك.

ـ يسعدني هذا. . وهل نجحت في امتحان القيادة؟

ـ تماماً، لكن لماذا كل هذا التوتر؟ أنا لا أعض.

كان صوته لطيفاً ومقنعاً. . بدا طويل القامة عريض الكتفين إلى درجة أن وجوده ملأ السيارة الصغيرة.

سألته ببرود دون أن تنظر إليه: هل توقفنا هنا لسبب خاص؟

ـ أجل. . ظننتك ستحبين أن تري المنظر.

خرج من السيارة واستدار ليفتح لها بابها. فاضطرت للخروج. . قادها إلى جدار بارتفاع الخصر على حافة سطح التل، ورأت أمامها منظراً رائعاً ممتداً للخط الساحلي يقطع الأنفاس بجماله. . سحرها المنظر بحيث لم تتكلم. . ثم قالت ببطء:

ـ الآن عرفت لماذا لم يرغب الرسام الفرنسي أن يترك الجزيرة.

أشعل لهما سيكارتين واستند إلى الجدار ينظر إليها بدلاً من المنظر. . وسألت:

ـ كم هي مساحة الجزيرة؟

ـ تقريباً خمسون ميلاً طولاً وحوالى الخمس والعشرين عرضاً. . معظم الجزر في المجموعة لها ذات المساحة تقريباً.

استدارت تنظر خلفها إلى الجبل بسفوحه الحادة المتفرعة إلى الخارج، ثم عادت تنظر إلى خضرة الغابات الكثيفة عند أقدام الجبل. .

سألت باهتمام وهي تشير إلى الصخور:

ـ أوليس ذلك شق في الصخور؟

ـ أجل. . وهو يصل إلى البحر، وقد تسبب به زلزال منذ سنوات عديدة. . هناك عدة شقوق في الجزيرة تصل إلى أعماق البحر وتشكل أمكنة

رائعة للغوص تحت الماء.. ويجب أن نستكشفها معاً بعد أن يعطيك غرانت المزيد من الدروس.

هل يشمل كلامه غرانت بكلمة «معاً»؟

قالت: لقد تأخر بنا الوقت.. ويجب أن أعود.

لم يحاول تأخيرها وقال:

ـ لا داعي للعودة إلى المستشفى.. أوصليني إلى منزلي قبل ذهابك إلى منزل ماكنزي.

ـ أجل.. طبعاً.. لكن يجب أن تدلني.. فأنا لا أعرف أين تعيش.

رفع حاجبه متسائلاً:

ـ لن تجدي صعوبة.. فأنا أسكن على مسافة قريبة منكم.. نحن جيران تقريباً..

كان منزله من طابقين، بعيد جداً عن الطريق، ومظلل بالنخيل وأشجار الموز، وسألها:

ـ أيمكن أن تدخلي لتناول شراب ما؟

ـ لا.. شكراً.. ليس الآن.

عادت البسمة الساخرة التي بدأت تصبح مألوفة إلى فمه:

ـ أتعرفين آنسة پاست.. لقد لاحظت أنني متى دعوتك لأي شيء، تقولين «لا» باستمرار وهذا ليس مهذباً من سيدة شابة حسنة التربية.. وأتساءل عن السبب؟ أيمكن أن يكون هذا لأنك خجولة.. أم لأنك خائفة من قول نعم؟

أحست آشلي بقلبها يخفق بشدة ولم تجرؤ على النظر إليه:

ـ حقاً سيد هولمان.. أنت تخلق شيئاً من لا شيء.. والآن.. لو عذرتني.. يجب أن أذهب إلى المنزل لأحضر نفسي لدعوة قبلت بها.

رفع يديه باستسلام ساخر: إصابة موفقة!

وخرج من السيارة ليراقبها وهي تتجه إلى منزل أسرة ماكنزي.

هل كان يحاول إزعاجها ممازحاً؟ تساءلت آشلي وهي تأخذ دوشاً وتغير ملابسها.. لا يجب أن تسمح لكراهيتها له أن تصبح واضحة.. فهي لم تفكر

بعد بطريقة لتدمير سمعته.. ما بدا خطة سهلة في انكلترا، يبدو الآن مستحيلاً.. كيف يمكن لأمرىء أن يدمر رجلاً لا نقطة ضعف فيه؟ ربما تكون له مساوىء خفية.. لكن هذا أمل ضعيف.

كان اليوم الذي تلا مشغولاً أكثر من المعتاد في المستشفى بسبب عملية جراحية طارئة بعد الظهر.

فيما بعد، قال ماكميلان وهو يجفف يديه:

ـ لقد تركت دفتر ملاحظاتي في المنزل.. سأذهب لأحضره.

قال ماك:

ـ أترك هذا إلى ما بعد مناقشة هذه الحالة معك.. أتسمح؟ أريد رأيك حول جرعة الدواء التي يجب أن أضعها.

ـ لن أتأخر دقيقة.. وسأحتاجه لكتابة التقرير.

ـ دع آشلي تأتيك به إذا كان ضرورياً.

ـ أوه.. لكن..

قاطعتهما آشلي: سأذهب.

دون انتظار الرد غادرت المبنى من باب خلفي يقود إلى الحديقة.

كان البنغلو في مكان منفصل عن مباني المستشفى، محجوب عنها بأشجار تحيط به.. وقطعت العشب إلى الشرفة بحذائها المطاطي الأبيض الخاص بالمستشفى، ودخلت غرفة الجلوس.. ماكميلان في العادة يترك دفتر ملاحظاته في درج منضدته، الذي أصدر صريراً وهي تفتحه.

ثم سمعت صوتاً ساخطاً من غرفة داخلية:

ـ ماكس.. كان يجب أن تقول لي إنك ستتأخر. أنا أنتظرك هنا منذ أجيال.

ودخلت كاتلين والكر إلى الغرفة.

حدق كلاهما بالآخر برهبة.. لكن آشلي كانت الأكثر حرجاً بالتأكيد.. التقطت دفتر الملاحظات وقالت بارتباك:

ـ كان على ماكميلان مساعدة الدكتور ماك في عملية جراحية طارئة.

استجمعت كاتلين نفسها، وقالت بخفة وابتسامة زائفة:

ـ أوه! لدي موعد معه.. لمجرد تجديد وصفة طبية..

صمتت قليلاً ثم قالت بسرعة وقد رأت التساؤل في عيني آشلي:

ـ أنا لا أذهب إلى المستشفى أبداً.. شيء ما هناك.. الرائحة كما أعتقد. هل سيتأخر؟ نحن دائماً نزوره سراً وتعرفين هذا.

كانت متوترة جداً، وأصابعها تتحرك باستمرار.. وأجابت آشلي:

ـ أجل.. أخشى أن يتأخر بعض الوقت.. سأطلب منه تحديد موعد جديد لك؟

ـ أوه.. لا.. سأتصل به بنفسي أو سأجعل جوناثان يزوره.

هزت آشلي رأسها والتقطت دفتر الملاحظات واستدارت لتخرج.. هل ترك ماكميلان الدفتر متعمداً ليكون لديه عذر للمجيء لرؤية كاتلين؟ إنها لا تريد مجرد التفكير بهذا.

أوقفها صوت كاتلين.

ـ انتظري! ربما تستطيعين إعطائي الوصفة الطبية طالما أنت هنا.. فأنا أنظم حفلة وأصبح متوترة جداً في مثل هذه المناسبات.. إذا كان بالإمكان أن تعطيني أي نوع من المهدئات..؟

نظرت إليها آشلي بارتياب، كانت المرأة المسكينة بحاجة فعلاً إلى شيء يهدىء أعصابها.. وقالت:

ـ دفتر الوصفات في مكتبي.

نسيت كاتلين خوفها من المستشفيات: سأجيء معك.

ما إن أصبحتا في المكتب، حتى كتبت آشلي الوصفة الطبية بسرعة وقالت:

ـ لكن تذكري لا تأخذي هذا الدواء مع الكحول ولا تأخذي أكثر من الجرعة الموصوفة.

أكدت لها كاتلين: لن أفعل.

وسارعت في الخروج.

تنهدت آشلي تتساءل عما إذا كان ماكميلان يعرف بماذا يورط نفسه،

وأطلت آرينا برأسها من الباب قائلة:

ـ حان وقت الشاي.

ـ أجل أرجوك آرينا..

أصبحت طقوس بعد الظهر في شرب الشاي فترة مرحة بالنسبة لآشلي.. وجدت نفسها تسترخي مع الفتاة المرحة آرينا، وعرفت الكثير عن الجزيرة وسكانها من كلامها معها.. آرينا مولودة في انكلترا، لكن والديها هاجرا إلى الأنديز الغربية حين كانت صغيرة جداً.. تزوجت منذ عدة سنوات، وهاجر زوجها ليعيش في أميركا لظنه أن أحواله المادية ستتحسن هناك لكن بعد حصوله على وظيفة سائق شاحنة، قتل في حادث سيارة وعادت هي إلى تريناكا لتعمل في المستشفى.. إنها تعيش بهدوء ولا تختلط مع الموظفين.. لكنها لا تشعر بمرارة نحو الماضي، ولها دائماً وجه مرح مبتسم للموظفين والمرضى على حد سواء وكانت آشلي معجبة بها جداً.

بعد العشاء ذلك المساء، رن جرس الهاتف وذهب ماك ليرد.. لكن بعد حديث قصير، قال لآشلي إن المخابرة لها.

ـ مرحباً آشلي.. هذه كاتلين.. أود أن أخبرك أنني حددت موعد حفلة الشواء يوم السادس والعشرين من الشهر. ستتمكنين من المجيء، أليس كذلك؟

ـ شكراً لك، أعتقد أن لا شيء يشغلني في عطلة الأسبوع تلك.

ـ أوه.. عظيم..

وصمتت كاتلين.. ثم:

ـ آشلي.. أتساءل ما إذا كنت لا تمانعين في أن لا تذكري زيارتي للمستشفى أمام ماك.. قد يمتعض من واقع أننا نفضل ماكميلان كطبيب لنا.

ـ أنا متأكدة أنه لن يمتعض.. لكنني سأفعل كما تشاءين، بالطبع.

بدا على المرأة الارتياح:

ـ شكراً.. لا تنسي موعد الحفلة.. الجميع سيأتي.

تساءلت آشلي وهي تضع السماعة من يدها من تشمل كلمة الجميع.. لا

تعني غرانت، لأنه أرسل لزيارة بعض الجزر الأصغر حجماً، وكان محبطاً لأن آشلي لن تحصل على درس الغطس الأسبوعي في الوقت الذي بدأت فيه تصبح كفؤة.. لكنه كان يأمل أن يعود بعد أسبوعين أو ثلاثة.

لم تكن آشلي آسفة كثيراً لابتعاده عنها، فبدون صحبته، ستتمكن من التركيز أكثر على السبب الذي جاء بها إلى الجزيرة.. وهي مستلقية مستيقظة في الفراش تلك الليلة، تصغي إلى نقيق ضفادع الشجر في الحديقة، حاولت عبثاً التفكير بحل للمشكلة. وأدركت أنها يجب أن تورط راندال في فضيحة رهيبة لا يمكن أن تنسى بسرعة.. وتوصلت إلى استنتاج أن هناك أربع طرق يمكن أن تدمر مستقبل موظف رسمي.. وهي السرقة، الإدمان، علاقة مشينة مع زوجة رسمي آخر، أو إجبار امرأة على أن تكون عشيقته.

لكن كيف السبيل كي يحدث شيء من هذا؟ واضح أن راندال ليس سارقاً ولا مدمناً وليس متورطاً سوى بعلاقة طبيعية جداً مع تونيا ويندهام. ولو أن له عشيقة فسيكون حذراً جداً كي لا يعرف أحد بأمرهما.

لم يكن قد مر على الفجر وقت طويل حين دق ماك على بابها ليوقظها من نوم عميق.

ـ آشلي.. استيقظي.. هناك حالة طارئة ويجب أن نذهب إلى الميناء فوراً.

قفزت آشلي من السرير بسرعة، وبعد غسل سريع وتبرج بسيط، ارتدت فستاناً قبل أن تنضم إلى ماك في غرفة الطعام حيث كان يشرب فنجان قهوة قدمته له الخادمة الناعسة العينين.. ومرر لها فنجاناً:

ـ هاك فتاتي.. اشربي هذا بينما أخرج السيارة من الكاراج.

سرعان ما كانا يسرعان نحو الميناء حيث يرسو مركب المستشفى.. كان مجهزاً بأسرّة لنقل المرضى من الجزر الصغيرة إلى المستشفى.. وكانت آشلي قد زارته لكنها لم تخرج به بعد.

سألت مع بدء البحارة رمي حبال الرسو، وانطلاق المركب في البحر:

ـ ماذا حدث؟

ـ لقد ضربت صاعقة شجرة ضخمة ووقعت على بعض البيوت. لم يقتل

أحد لحسن الحظ، لكن العديد تحطمت عظامهم وأطرافهم..

لم تكن جزيرة سانكريد تبعد أكثر من خمسين ميلاً عن تريناكا، وكان اللانش قادراً على الخوض بسرعة فائقة.. هكذا، أطل فيليب برأسه في قمرة المرضى ليقول لهما إن الجزيرة أصبحت على مرمى البصر.

سألت آشلي بدهشة: وهل فيليب من أفراد طاقم المركب؟

ـ أجل.. إنه بحار بارع.. والقبطان هو ابن عمه وهو يأتي معه بأخيه الصغير..

كان الرسمي المقيم في سانكريد ينتظر فوق المرسى مع سيارة، وقادهما إلى عيادة صغيرة في القرية الأكبر في الجزيرة.. وأسرعت امرأة سمينة لها مظهر أمومي نحوهما ووجهها الأسمر مغضن بخطوط قلق، تخبرهما تفاصيل الحالة السيئة.. بدأ الطبيبان العمل في تجبير العظام وتقطيب الجروح البشعة.. كانت معظم الحالات روتينية.. لكن رجلاً مسكيناً تحطمت ساقه بشكل سيء بحيث قررا في النهاية بترها، وقال ماك لها:

ـ أنا متردد في إجراء العملية هنا.. وأفضل أن آخذه إلى تريناكا ليستفيد من كل تسهيلات المستشفى ومعداتها.. هل تمانعين لو تركتك هنا لإنهاء الحالات الأقل خطورة ومراقبة المرضى لبضعة أيام؟

ـ لا بأس في هذا.. طبعاً.

ـ أنت فتاة طيبة.. سأجعل مارتا ترسل لك بعض الثياب فيما بعد هذا اليوم.

سرعان ما رحل هو ومريضه تاركاً آشلي تشرف على تجبير الساقان، وترتيب نقل من هو قادر إلى منزله، وكان قد مضى وقت طويل من بعد الظهر حين انتهت من كتابة ملاحظاتها. وذكرها صوت عميق في معدتها أنها لم تأكل شيئاً طوال النهار.. فخرجت تبحث عن الأخت الممرضة توليس الممرضة المقيمة، وسرعان ما قدمت لها طبق عجة مع سلطة خضراء، وطبق فاكهة كبير.. أخرجت آشلي الصينية إلى الشرفة لتأكل الوجبة وهي تتفرج على سفوح التلال الخضراء، والشواطىء المرجانية اللامعة في الجزيرة.

انتهت وجبة الطعام.. فذهبت تتمشى عبر طريق زراعية تمر بالحقول المجاورة. كان الطقس حار جداً، وعرفت أن عليها عدم الخروج تحت أشعة الشمس دون قبعة.. لكنها لم تهتم... وصلت إلى الشاطىء حيث خلعت حذاءها وسارت فوق الرمال الناعمة.. وكم كانت تحب أن تسبح في مياه المحيط الباردة المغرية، لكن كان هناك سكان محليون يصطادون في المياه الضحلة بواسطة الشباك، هكذا أقنعت نفسها بالسير على حوافي المياه الخالية من الأمواج.. نظرت إلى ساعتها، ثم ارتدت على مضض حذاءها وسارت عائدة إلى العيادة وإلى مرضاها.

عند بروز العيادة أمام نظرها، لاحظت رجلاً يجلس على الشرفة.. فجأة وعت ازدياد دقات قلبها مع وقوف راندال هولمان لاستقبالها. وقال بخشونة:

ـ ألا تعرفين أنه يجب عدم الخروج في ساعات الحرارة الشديدة من النهار دون قبعة؟

ـ لكنني لم ألاحظ أنك ترتدي قبعة.

ـ أنا معتاد على الطقس.. لكن من له بشرة شقراء مثلك يمكن أن تحرقه الشمس بسرعة.

قررت آشلي أن تتجاهل ملاحظته.. وقالت متعمدة:

ـ هل أردت رؤيتي لسبب خاص؟

ساد صمت مرتبك قبل أن يرد:

ـ لقد جئت إلى هنا لأشرف على إصلاح الأضرار التي تسببت فيها العاصفة الرعدية.. وطلب مني ماك أن أوصل لك بعض الملابس.

ـ شكراً لك.. هذا لطف منك.

ـ كم تظنين أنك مضطرة للبقاء هنا؟

ـ ليس لوقت طويل.. معظم المرضى سيتمكنون من العودة إلى بيوتهم بعد بضعة أيام وستتمكن الأخت الممرضة من معالجتهم بنفسها بعد ذلك.

ـ إذن ستتمكن من تسلية بعضنا. فأنا سأقيم هنا إلى أن تنتهي أعمال الإصلاح.. ربما تتناولين العشاء معي الليلة؟

رفعت آشلي عينيها بصمت إلى عينيه لتجده ينظر إليها مترقباً.. وكأنه ينتظر منها أن تعتذر باستعجال.. وتذكرت كيف فكرت أن القدر لا بد أن يجد لها طريقة ما.. وربما تكون هذه هي الطريقة؟ ربما هذا هو الوقت المناسب؟

تمكنت من الرد بصوت منخفض مخنوق:

ـ شكراً لك، سأنتظر هذا بفارغ الصبر.

ثم استدارت لتدخل العيادة بسرعة قبل أن ترى ردة فعله.

* * *

www.elromancia.com

٣ ـ رقصة النار

كانت الملابس التي جاء بها راندال موضوعة في غرفة نوم إضافية. . علقت ثيابها وأدهشها أن مارتا أرسلت لها فستان سهرة. . فلماذا فعلت هذا يا ترى؟ واشتد فمها. . السيد راندال هولمان واثق جداً من نفسه، ولسوف تجد سعادة كبرى في أن تضعه في مكانه الصحيح! ثم تنهدت. . عليها أولاً أن تجتاز هذه الأمسية.

ارتدت الفستان البرتقالي القاتم اللون المفتوح الياقة الذي أرسلته مارتا، ولفّت شالاً حول كتفيها. . ألقت نظرة انتقاد أخيرة في المرآة، ولاحظت النبض الخفيف الذي يخفق في منتصف عنقها دلالة على توتر أعصابها، كانت عيناها براقتين وأحست بخفة الرأس والارتباك. . ونظرت إلى انعكاس صورتها وفكرت: إذا كانت كراهية رجل لها مثل هذا التأثير عليها، فماذا سيفعل الحب فيها؟

سمعت دقاً خفيفاً على الباب وقالت لها فتاة صغيرة إن راندال وصل. . وبدأ قلبها على الفور بالخفقان بسرعة واضطرت إلى السيطرة على نفسها بالقوة، ووقفت بهدوء بضع لحظات إلى أن تغلبت على الذعر وخرجت بهدوء لتقابله بابتسامة مهذبة على وجهها، وتحية على شفتيها.

كان يرتدي سترة سهرة بيضاء تزيد من بروز سمرته وتظهر عرض كتفيه. جالت عيناه الرماديتان عليها بإعجاب وهي تتقدم نحوه، وأمسك ذراعها ليساعدها على نزول الدرجات القليلة نحو السيارة.

ـ أخشى أن لا تكون هذه المركبة مريحة مثل سيارة غرانت الأميركية. . لكن

لا يوجد الكثير من العربات في سانكريد، اقترضت هذه من مكتب الحكومة.

ـ لا تقلق. . إنها مريحة حقاً.

ـ لو نظرت إلى المقعد الخلفي، ستجدين شيئاً لك.

ببطء مدت يدها لتلتقط العلبة البيضاء الطويلة الملقاة على المقعد الخلفي، كانت مربوطة بشريط حريري أصفر. . وأحست فجأة بعدم الرغبة في فتحها.

قال بخفة وقد لاحظ ترددها:

ـ افتحيها. . فأنا لست من الطراز الممازح إذا كان هذا ما يجعلك مترددة.

ضحكت آشلي بصوت بدا متصلباً حتى لأذنيها. . وألقت الشريط الحريري الأصفر كبركة ذهبية في حجرها وهي تفتح الغطاء، وظهرت زهرة «أوركيديا» قرمزية اللون فوق الطبقة الباردة، أوراقها التي تقارب اللون البني تلمع في العتمة. . وعرفت آشلي ساعتها لماذا هذه الزهرة هي الأغلى ثمناً والأكثر طلباً من بين الزهور كافة. . شهقت شهقة ابتهاج صغيرة، ثم بحذر شديد رفعت الزهرة لتشم عطرها المسكر.

قالت بامتنان حقيقي:

ـ أوه شكراً لك. . إنها ساحرة الجمال. . لم يهدني أحد زهرة «أوركيديا» من قبل. . هل يباع منها في الجزيرة؟ لم أكن أظن أن هناك بائع زهور في مكان صغير كهذا.

وصلا إلى قرية صيد صغيرة وأوقف راندال السيارة إلى جانب الرصيف:

ـ ليس هناك بائع زهور. . إنها تنمو برّية إلى جانب الجبل قرب شلال ماء.

ـ وهل أرسلت أحداً ليتسلق ويقطفها لك؟

ـ لا. . بل ذهبت بنفسي. . لقد فكرت أن هذه المناسبة هي مناسبة خاصة. . على أي حال هذه المرة الأولى التي تقولين لي فيها نعم.

سرقت آشلي نظرة سريعة نحوه فرأت ابتسامة مرح على وجهه. . وقالت:

ـ ليس معي دبوس لأثبتها فيه.

أخرج دبوسين من جيبه:

ـ موظف الحكومة يجب أن يكون على استعداد دائم. . أترغبين أن أثبتها

لك؟

نظرت آشلي إلى علاقة الفستان الرفيعة فوق كتفها، وقالت بسرعة:

ـ لا.. شكراً لك.. أستطيع تدبير أمري.

وثبتت الزهرة في مكان مرتفع من كتفها، بحيث لا يكون عليها سوى أن تلتفت لتشم عطرها الأخاذ. ثم سألت وهو يساعدها لتخرج من السيارة:

ـ هل سنتناول الطعام هنا؟

ـ لا.. فعلينا أولاً أن نلتقطه.

ـ نلتقطه؟

ضحك: تعالي لتري.

كان هناك مجموعة من القوارب المربوطة إلى الرصيف، وقادها راندال إلى أكبرها حجماً حيث ساعد رجل مسن من المحليين آشلي على الصعود.. وقفز راندال بخفة إلى جانبها.. وأوصلهما الصياد إلى مقاعد في المقدمة. بدا صوت المحرك مزعجاً في البداية، لكنه هدأ بعد أن غادر القارب جدران الميناء الصخرية، وسرعان ما أخذ الرجل يشق طريقه ببراعة عبر الصخور المرجانية في الظلام ما عدا ضوء صغير يرشده.. ورأت آشلي أنوار المنازل تختفي بالتدريج والمركب يبتعد إلى عرض البحر.. قال الصياد شيئاً لراندال بلغة لم تفهمها آشلي ونظرت إليه متسائلة.

ـ إنها لغة الكريول، معظم المحليين يتكلمونها..

صمت مع كلام الرجل مرة أخرى، ثم أكمل:

ـ سوف يضيء الآن مصباح الصيد.

وجدت آشلي أن الضوء المبهر يؤلم عينيها ورفعت يدها لتحميهما.. قال راندال:

ـ انظري إلى أرض المركب.

بذهول، فعلت ما قال.. لترى قاع البحر حيث أسراب من السمك المتعدد الألوان تسبح بين صخور المرجان البرتقالية والبيضاء.. واختبأ أخطبوط صغير وراء الصخور، ثم برز «حنكليس» طويل، وأجفلت آشلي فأحست بذراع

راندال الدافئة تلتف بحماية حول كتفيها، على الفور مالت إلى الأمام مجدداً وأصبحت مهتمة جداً بسمكة «الحنكليس».

قالت تسأل:

ـ إنه قارب زجاجي القعر.. أليس كذلك؟ لقد قرأت عن أمثاله..

ـ إنها مفيدة جداً للصيد الليلي.. راقبي الآن..

أخذا يراقبان السمك في البحر إلى أن سبحت سمكة رمادية ببطء أمامهما.. ثم بسرعة لا تصدق، طعنها الصياد برمح طويل، ورماها في قعر الزورق.. ولم تستطع آشلي أن تنظر إليها.. وهذا أمر سخيف، فهي طبيبة ولقد رأت مناظر أسوأ من هذه بكثير.. حين أدارت وجهها مجدداً وجدت راندال يراقبها بفضول ونظرة لطف في عينيه.

ـ لقد انتهى كل شيء الآن.. وأتمنى أن تكوني جائعة فهذه سمكة كبيرة.

ـ أجل.. أنا جائعة جداً.. هل سنأخذها إلى الميناء؟

ـ ولماذا العودة إلى الميناء ولدينا مطعم ممتاز هنا؟

ولوح ذراعه نحو مقدمة القارب، ورأت آشلي أن الصياد العجوز فتح الغطاء عن طباخ صغير وبدأ يطهو قطعاً من السمكة في مقلاة كبيرة.

سرعان ما كان يضع طاولة أمامهما.. وجاء لهما بأطباق مليئة بقطع السمك الساخنة فوق طبق من الأرز المطهو والمبهر. وأكملت زينة المائدة رقاقات من الخبز الطازج البيتي الصنع وأخذ العجوز حصته من العشاء إلى الطرف الآخر من القارب.. حيث جلس ليأخذ حريته في تناول الطعام.

سألت آشلي: هل يتكلم الإنكليزية؟

ـ ليس كثيراً.. لأنه يفضل الكريول.

بعد انتهاء وجبة الطعام أعادهما دايفد إلى رصيف الميناء وتمنى لهما ليلة سعيدة.. وعادا يبطء في السيارة في ليل يضيئه نور القمر، ولم يتكلما كثيراً.. لكن الصمت لم يكن كريهاً ولا محرجاً كما توقعت آشلي.. وأوقف راندال السيارة في مكان بعيد قليلاً عن العيادة واستدار ليفتح الباب لها.

ـ فكرت أن نسير ما تبقى من الطريق.. فأنا لا أريد إيقاظ المرضى.

نزلت آشلي من السيارة ترفع رأسها تتأمل جمال الليل المشع بالنجوم. . تقول بسعادة:

ـ هناك ألف من الروائح المختلفة.

أخذ شالها منها:

ـ من الأفضل أن تضعي هذا، فالليل هنا قارص البرد.

كان نور القمر يزيد من إبراز الظلال على وجهه مما أعطاه نظرة سوداء شيطانية، فجأة أحست به يقف منتصباً إلى جانبها. لف الشال حول كتفيها ورفع شعرها من تحته بلطف.

ـ أحب شعرك هكذا، الطريقة التي تمشطينه بها وأنت تعملين تجعلك تبدين رسمية بشكل رهيب.

كانا يسيران صعوداً في الطريق الموصلة إلى العيادة وأدركت آشلي فجأة أن الوقت قصير. . وإذا كان هناك فرصة ما، فيجب أن تبرز سريعاً.

قالت: أنا امرأة عاملة ومخلصة لمهنتي.

ماذا يمكن أن تفعل الآن؟ هل تصرخ إلى أن توقظ المكان كله وتتهمه بمحاولة اغتصابها؟ لكنه لا يمكن أن يجرب هذا على عتبة العيادة. . ثم هي تعرف أنها ستحتاج إلى دليل لسوء المعاملة كالكدمات، لجعل مثل هذا الاتهام يبدو صحيحاً.

قال لها شيئاً آخر لكنها لم تسمعه، فاضطر إلى تكرار السؤال:

ـ هل أنت واثقة أنك تريدين تخصيص نفسك لعملك؟ ألا تدخل العواطف في الصورة أبداً؟

ردت بحزم: أنا لست من النوع العاطفي.

وضع يديه على كتفيها وأدارها لتواجهه:

ـ عجباً. . لماذا جئت إلى تريناكا آشلي؟

أدارت رأسها عنه وردت ببرود:

ـ لأنني أردت السفر. . الوقت متأخر. . وأريد أن. .

لكنه وضع يده تحت ذقنها وجعلها ترفع رأسها لتنظر إليه.

ـ لدي إحساس بأنك تهربين من شيء ما. . أو شخص ما. . ألهذا السبب أنت ضد العواطف؟

أبعدت نفسها عنه وقالت كاذبة:

ـ حقاً سيد هولمان. . كلامك سخيف! ليس لك أي دخل في أسباب مجيئي إلى تريناكا.

ابتسم على ضوء القمر: هذا واضح.

فاجأها برفع إصبعين إلى شفتيه، ثم لامس بهما ذقنها:

ـ ليلة سعيدة آشلي.

ثم ذهب.

دخلت آشلي إلى العيادة وأفكارها مشوشة. . وتأكدت أن كل شيء على ما يرام قبل الدخول إلى غرفتها. الليلة، لم تكن صورة بن معها لتعطيها الشجاعة، وأحست بالعزلة. . لقد ضاعت الأمسية ولم تتح لها الفرصة للانتقام، وأحست بالإحباط لفشلها. . أطفأت النور، وأملت أن يبرز شيء أمامها قبل مغادرتها لسانكريد.

كانت الأخت توليبس قد نشرت الخبر لها، وفي بعد ظهر اليوم التالي، اجتمعت خمسة عشر امرأة محلية مع أطفالهن ليستمعن من آشلي شيئاً عن عيادة التخطيط العائلي التي تنوي إقامتها على الجزيرة. . بحذر وبساطة شرحت آشلي لهن المسألة كلها. . وقررت عدة أمهات شابات أن يشاركن في المشروع.

تمكن رجلان آخران من المصابين من العودة إلى بيوتهم ذلك المساء، وتطوعت آشلي أن توصلهم بسيارة «فان» المستشفى، وجاءت معها ممرضة لتدلها على الطرقات المجهولة التي سارت فيها ببطء، محاولة جهدها أن لا تزعج المريضين. . كان الرجلان يعيشان في قرية صغيرة حيث وقعت الشجرة، وسرعان ما رأت الأضرار التي تسببتها. . ثلاثة بيوت تحطمت، وتضرر بيتان آخران. . لكن الركام أزيل وأنشئت مبان مؤقتة لإيواء المشردين.

كانت مجموعة من العمال مشغولة بأعمال التصليح في الأبنية المتضررة، لكنهم سارعوا إلى مساعدة المصابين للنزول من الفان.

لم يتصل راندال بها ذلك اليوم وبدأت تشعر بالخوف من أن تكون أهانته بيرودها، وأنه قرر أن لا يتصل بها أو يسعى لصحبتها.. ودون أن تعترف لنفسها، بدأت تترقبه وتسعى إليه، تتوقع أن يكون في مكان ما يشرف على العمال، لكنها لم تجد سوى المسؤول المقيم الذي قابلها ممازحاً:

- هل أعدت بعض الجرحى ممن لا زال يستطيع السير؟ لقد تسبب هذا بقليل من الإزعاج.. أليس كذلك؟

- لا بد أنها شجرة كبيرة.

- شجرة نخيل قديمة طولها خمسين قدماً.. المشكلة أنها كسرت معها بعض الأشجار الأخرى.. ولقد اضطررنا إلى تقطيعها قبل البدء في الإصلاحات.. ولقد ذهب راندال هولمان إلى إحدى الجزر ليحضر مولدين للكهرباء كي نتمكن من العمل بسرعة أكبر.

تابع حديثه عن العمل، لكن آشلي لم تكن تصغي إليه فقد سمعت الخبر الوحيد الذي يهمها حقاً.

أمضت الأمسية تكتب سجلات المرضى وقررت أن الحالات المتبقية تتحسن بحيث من الممكن لها أن تغادر «سانكريد» بعد يومين.. هكذا، في الصباح التالي توجهت إلى المكتب الحكومي لتتكلم مع ماك عبر الراديو، وقال لها إن الرجل المبتور الساق يتحسن، وسيدبر أمر نقلها من الجزيرة في اليوم التالي.

عندما عادت إلى العيادة، وجدت الأخت توليس تولد طفلاً، ونسيت تعبها تماماً وهي تراقب الولادة.. الأعجوبة الصغيرة التي لا تتعب من مراقبتها.

كانت الطبيبة والممرضة تضحكان للاسم الذي اختارته الأم للمولود الذكر حين سمعتا طرقاً على باب المكتب، وأحست آشلي بقشعريرة على بشرتها فقد كانت تتوقع رسالة من راندال طوال الصباح.. لكن حين نادت الممرضة: ادخل، صاحت آشلي بسعادة:

- غرانت! ماذا تفعل هنا بحق الله؟ ظننتك تبعد أميالاً.

ضحك غرانت:

- سمعت أنك في سانكريد، وقررت أن الجزيرة بحاجة إلى مقاومة الوباء الزراعي.

- يا للسماء! وهل أنا سبب الوباء؟

بدا مرتبكاً للحظة.

- لم أقصد..

ثم صمت يقطب بغضب زائف:

- أرى أنك لم تتغيري.. هيا الآن.. سآخذك إلى الغداء.

لم تنتظر آشلي المزيد من الإقناع، وأسرعت إلى غرفتها تخلع الروب الأبيض وتغير ثيابها. مشطت شعرها، وضعت أحمر الشفاه، وأصبحت جاهزة.

سألته حين انضمت إليه:

- إلى أين سنذهب؟

- إلى مطعم صغير عند رصيف الميناء، يملكه صيني عجوز يصنع طبق دجاج حلو، حامض.. رائع.

- أوه.. يبدو لي هذا لذيذاً.

كان غريباً كيف تشعر بالارتياح مع غرانت. لم يكن هناك شيء من التوتر والغضب الذي يطبع لقاءها براندال وفكرت بشيء من السخرية.. غرانت لم يقتل أخاها وهي لا تتمنى له سوى الخير.. بينما تتمنى لراندال هولمان كل الأمراض والأوبئة التي يمكن أن تفكر بها.

كان رواد المطعم الصيني مزيجاً من أعراق مختلفة.. البعض بحارة في مراكب نقل الموز التي تزور الجزيرة الصغيرة.. من حيث جلسا تحت مظلة مخططة على جانب الرصيف، رأت آشلي واحداً من هذه المراكب تنقل إليه النساء أقراط الموز على رؤوسهن من الرصيف. كانت النساء يتحركن بسرعة ودون صوت، والحمل الثقيل على رؤوسهن متوازن بحذر.

قال غرانت:

- إنهن يبقين هكذا طوال اليوم وأحياناً في الليل إلى أن تحمّل كل الشحنة.. في الليل يضيء قبطان السفينة الأنوار بحيث يصبح الرصيف كله لامعاً كضوء

النهار..

جعل وصفه هذا آشلي تشعر بالأسى على النسوة العاملات بمشقة.. بحيث قالت بشيء من الغضب:

ـ لماذا لا يقوم الرجال بشيء من هذا العمل؟

ـ أنت بالتأكيد لا ترغبين في حرمان النساء من استقلالهن؟

قال هذا صوت مألوف فقفزت آشلي مجفلة، ورأت راندال يسير على الرصيف متجهاً نحوهما..

جلب له غرانت كرسياً ودعاه للانضمام إليهما.

وردت بقسوة:

ـ العمل قاس عليهن جداً جسدياً. ولا بد أنهن يصبحن مرهقات تماماً بعد بضع ساعات من العمل في مثل هذا الحر.. خاصة بالسرعة التي يعملن فيها.

قال راندال بقسوة:

ـ لقد ولدن لمثل هذا العمل.. وإذا نظرت جيداً سترين أن معظمهن صغيرات في السن.. ولن يشكرنك لو حاولت انتزاع لقمة العيش منهن.. فالعديد منهن لديه عائلات يعيل يعيلها.

ـ ولماذا لا يعيلهن أزواجهن؟ أعتقد أنهم شديدو الكسل؟

ـ معظمهن لسن متزوجات.

نظرت إليه بارتياب لا تعرف ما إذا كان يسخر منها.

بدا لآشلي أن راندال كان يبحث عن غرانت.. فبعد انتهاء الطعام واسترخاء آشلي في مقعدها، تشعر بالنعاس، بدأ راندال يسأل غرانت عن تقدمه في مكافحة الآفة الزراعية.. وراقبتهما آشلي عبر جفنين نصف مغمضين.. كان غرانت يرسم نوعاً من الخرائط على ورقة، وقد لوى راندال رأسه لينظر إليها وهو يصغي دون تعبير مفهوم على وجهه.. ولأن اهتمامه لم يكن عليها، تمكنت من دراسة قسمات وجهه وقررت أنه جميل الطلعة بأنفه المستقيم ورموش عينيه الطويلة.. وافترضت أن بعض النساء وقد تكون تونيا ويندهام منهن، لا بد يعتقدنه فاتناً.. وانخفضت نظرتها إلى يديه وهو يشير إلى شيء على الرسم،

كانتا طويلتين نحيلتين، بأصابع قوية كأصابع جراح.. وتصورتهما يلامسانها.. فجأة فتحت عينيها لتجده ينظر إليها مباشرة.. أسر نظره عينيها بعينيه وأحست بالاحمرار وكأنه عرف ما كانت تفكر به. وحاولت إبعاد عينيها عنه بقوة، لكن كان لعينيه جاذبية الفولاذ.. وأحست أنها منوّمة مغناطيسياً.

عادت إلى الأرض مع وضع غرانت كوب المرطبات من يده على الطاولة بصوت مرتفع.. كان يتكلم.. لكنه أدرك أن أياً منهما لم يكن يصغي إليه، وقرر أن يجعل وجوده محسوساً.. أجفلت آشلي وهي تحس بالذنب وزاد احمرار وجهها، لكن راندال ابتسم والتقط رسم غرانت قائلاً:

ـ هذه نظرية مثيرة للاهتمام غرانت.. سأضعها في ذهني.

ووقف ليتركهما. لكنه أضاف:

ـ على فكرة.. أنا مكلف بإعادتك معي إلى تريناكا غداً آشلي.. سأجيء لآخذك في الساعة الرابعة!

ابتهجت آشلي للسرعة التي يسافران بها وهي تراقب الأمواج تختفي تحت جسم المركب.. وسمحت للريح بأن تنفخ شعرها كغمامة لامعة حول رأسها.. وسألت:

ـ هل هذا مركب حكومي؟

ـ لا.. «الوايل» هو ملك لي.

كان راندال يراقبها وكأنها طفلة تميل لتمرر إصبعها في مياه المحيط.. وأكمل:

ـ اشتريته حين وصلت إلى تريناكا أول مرة.

كان المركب أصغر حجماً من لانش المستشفى، لكنه أكبر من المركب الآلي الذي يستخدمه موظفو المستشفى للرحلات القصيرة إلى الجزر القريبة.

وقال لها:

ـ هذا النوع من المراكب يدعى مركب الرحلات ويمكن استخدامه لرحلات طويلة جداً.. تعالي وحاولي قيادة دفته.

ـ هل أستطيع فعلاً؟ لم أقد قارباً من قبل.

ـ لا تقلقي، سأراقبك.. ابقي الدفة ثابتة على المسار الذي هي عليه الآن.

بخوف كبداية، ثم بتزايد ثقة بالنفس، أخذت المقود وقادت المركب.. وقالت وكأنه تسرّ له:

ـ إنه أسهل من قيادة السيارة.. لكن كيف تعرف أي جهة تتجه وليس هناك لوحات؟

ضحك عالياً:

ـ يا قليلة الخبرة! هناك أشياء اسمها الخرائط.. ترسمين خط سيرك ثم تسيرين بواسطة اتجاه البوصلة.

نظر إلى شعرها الذهبي المتطاير بفعل الريح، ثم مد يداً يتلمس خصلة شردت على كتفها:

ـ ربما سأعلمك الإبحار.

جمدت آشلي للمسته وأفلتت الدفة من بين يديها.. فاستدار المركب بجنون، فجأة انحرف إلى الميمنة وضربت ميسرته موجة عاتية فترنح بقوة وفقدت آشلي توازنها حتى كادت تقع فوق طاولة الخرائط لو لم يمسك بها راندال.. للحظة امتلأ أنفها برائحة كنزته، مزيج من الزيت والدخان ثم وضعها بحزم في زاوية ليمسك المقود ويصحح مسار المركب.

لسخطها وجدته يضحك وحاجباه مرتفعان سخرية.. وبقدر ما استطاعت أن تجمع من وقار، وقفت على قدميها وتجاوزته لتنزل إلى القمرة في الأسفل.. إنه لم يسأل لماذا أفلتت الدفة.. فهو لم يكن بحاجة للسؤال، بل يعرف جيداً أن ما عليه سوى لمسها لتتحطم قطعاً صغيرة. اللعنة على الرجل.. وصفقت باب القمرة وراءها.. مصممة أن تبقى هناك حتى الوصول إلى تريناكا.

كانت حفلة الشواء التي أقامتها كاتلين والكرز غير رسمية.. كان كل الموظفين الرسميين تقريباً هناك مع زوجاتهم ما عدا السير موريس واللايدي سمبسون، وغرانت الذي كان لا يزال مسافراً، وتصاعدت من اللحم المشوي فوق النار الروائح اللذيذة.. ومع مرافقة ماكميلان كينغ لها، كانت آشلي مصممة على الاستمتاع بالحفلة.

كان راندال هناك ترافقه تونيا، وبدا أقل انزعاجاً وهو بعيد عن عيني بريتانس سمبسون.. لكن فيما بعد، حين رقصت تونيا مع جوناثان والكرز، تقدم راندال إلى آشلي وماكميلان.

ـ هل لي بهذه الرقصة آشلي؟

سمعت آشلي رنة تحدٍ في صوته.. لم تكن قد رأته منذ ودعته بسرعة على الرصيف حين أوصلها من سانكريد.. ولم يحاول الاتصال بها. وعرفت أنه يتوقع منها أن تعتذر..

هكذا، وبتبجح بالشجاعة، أعطته ابتسامة مشرقة تماماً وقالت بمرح:

ـ سأحب هذا كثيراً راندال..

ثم دخلت بين ذراعيه تلتصق به، ويدها اليمنى مرتفعة إلى كتفه تكاد تلامس شعره الحريري عند مؤخرة عنقه.

قال: أنت جميلة مشرقة هذه الليلة!

رفرفت رموشها وابتسمت له بحلاوة، متعمدة أن تستند إليه بثقلها.. كانت تأمل أن يجعله تصرفها يعتقد أنها غير مناسبة للرقص، وبهذا سيعيدها إلى ماكميلان بسرعة.. لكنه، بدلاً من ذلك، أمسك يدها اليمنى بحزم، وشد على ظهرها بحيث زاد التصاقها به.. أحست بشفتيه تلامسان شعرها فجمدت متصلبة وارتبكت خطواتها.. كان يمسك بها جيداً بحيث أن ارتباكها لم يلحظه أحد، مع ذلك بقيت متصلبة ترفض التحرك.

نظر راندال إليها وعيناه مليئتان بدهشة ساخرة:

ـ حبيبتي.. لم التوقف وقد بدأت الرقصة تثير اهتمامي؟

وحاول شدها، لكن آشلي وضعت يدها اليسرى على صدره وحاولت دون نجاح دفعه عنها.

قالت تهمس بحدة: دعني!

لكنه رفض بعناد:

ـ لكن أليس هذا ما كنت تريدينه؟

احمرت وجنتاها حرجاً وسخطاً وهي تلاحظ أن بقية الراقصين بدأوا النظر إليهما بفضول وهما واقفان وسط حلبة الرقص:

ـ لم أعن هذا! وتعرف أنني لم أعنه!

ـ حقاً؟ ألم تتعلمي بعد أن اللعب بالنار قد يحرق أصابعك؟ دعينا الآن نبدأ من جديد.. ممكن؟ هل لي بهذه الرقصة آشلي؟

كان يمكن لها أن تتخلى عن أي شيء في العالم لترفض. لكنها أحست بخوف مفاجيء.. هكذا ودون النظر إليه قالت بصوت منخفض:

ـ أجل.. أرجوك.

أخذها بين ذراعيه مجدداً، لكنه أبقاها مسترخية وعلى مسافة منه. كان نغم الرقص «سلو».. أخذ يقودها بحذر عبر الراقصين، لكنها أبقت نظرها بثبات على زر قميصه الذي كان على مستوى نظرها وركزت على محاولة تهدئة الارتجاف الذي كان يسري في جسمها بالرغم من حرارة الليل.

حين توقفت الموسيقى، رافقها إلى كرسي وقال بلهجة رسمية:

ـ شكراً كثيراً لك.

وابتعد عنها دون أن ينظر خلفه، إلى حيث كانت تونيا تراقبهما عابسة بحدة.. على الفور، اتجهت آشلي إلى الحمام حيث استندت إلى الجدار البارد، وأحست بالوهن.. ببطء غسلت صدغيها ونظرت إلى وجهها الشاحب في المرآة. ما فعلته كان غباء مطلقاً.. فرجل مثل راندال هولمان يعرف طبيعة النساء جيداً بحيث لن ينخدع بمثل هذه التمثيلية السخيفة.. حسن جداً، لقد واجه خدعتها وخسرت رهانها.. وهزمت كأنه طرحها أرضاً.

حين خرجت لتطلب من ماكميلان أن يوصلها إلى المنزل، لم تجده بين جمع الضيوف.. ووجدته أخيراً في زاوية مظلمة، يشكر مضيفته على الحفلة بطريقة شخصية جداً! بسرعة تراجعت آشلي لتقول لمارتا إن لديها صداع وستوصل نفسها إلى البيت.. وليظن الجميع ما يريدون ظنه، لكنها لن تستطيع البقاء فهي تحس بالإذلال الشديد.

عاجزة، بائسة، تسللت السرير ودفنت وجهها في الوسادة.

يبدو أنها لن تتمكن أبداً من هزيمة هذا الرجل المسيطر كثيراً على نفسه، وعلى كل موقف!

* * *

www.elromancia.com

٤ ـ في قلب الإعصار

بدأ الوقت يمر بسرعة على جزيرة تريناكا، وسمح ماك لآشلي أن تزور الجزر المجاورة لتأسيس عياداتها ولإعطاء دروس في رعاية الأطفال وصحتهم للنساء المحليات. كانت عادة تسافر على متن المركب التجاري الصغير مع فيليب تريان ومع أخيه الأصغر، وكان غرانت يأتي أحياناً للنزهة.. سرعان ما أقنعت آشلي فيليب أن يعلمها كيف تقود المركب، وكانت تتعلم بسرعة والتقطت مبادىء الإبحار جيداً.. لكنها كانت دائماً تسلم الدفة لفيليب لدى دخولهم مرفأ تريناكا.

كان الربيع يتراجع تدريجياً أمام الصيف، وأخذت سمرة آشلي تصبح ذهبية قاتمة.. لكنها قررت أن لون بشرة ظهرها كانت أقل سمرة من واجهتها الأمامية.. هكذا في أحد أيام الآحاد، والخدم في فرصتهم الأسبوعية، والزوجان ماكنزي في زيارة لأصدقاء في جزيرة قريبة أخذت معها منشفة إلى الشاطىء.. ثم استغرقت مع كتاب، تنوي مساواة سمرة جسمها من الخلف والأمام. حين سمعت شخصاً يقترب، رفعت رأسها لترى راندال في قميص وبنطلون قصير يتقدم فوق الرمال نحوها.

ـ صباح الخير.. أتمانعين لو انضممت إليك؟

دون انتظار الجواب، جلس بكل راحة إلى جانبها.. فقالت ساخرة:

ـ أرجوك أن تجلس.

واستدارت تعطيه ظهرها، لتأخذ القميص القطني الأزرق الذي جاءت به معها.. قال بأدب:

ـ دعيني أفعل.

وأخذ القميص منها ليمسكه لها. واضطرت أن تتركه يساعدها، لكن وهي تقفل الأزرار أحست بضرورة للقول:

ـ شكراً لك.. لكن كان بإمكاني فعل هذا بنفسي.

نظر إليها متفحصاً، فأسرعت تخفي عينيها بنظارة الشمس.. فابتسم:

ـ أعرف.. فأنت تعتقدين نفسك سيدة شابة متحررة جداً.. وأن كل شيء يفعله الرجل تستطيعين فعله بالكفاءة ذاتها إذا لم يكن أفضل.

رفع يده يوقفها وهي على وشك الرد:

ـ أوه.. أعرف ماذا ستقولين.. لكن لماذا تبعدين الرجال عن حياتك؟ إنهم نافعون أحياناً وتعرفين هذا.

تجاهلت ملاحظته وردت بحدة:

ـ أنا لا أبعد الرجال عن حياتي.

عاد صوته إلى اللطف:

ـ لا؟ هذا يعني أنك تركت رجلاً يدخلها من قبل. وأعتقد أن هذا الرجل جرحك وآلمك كثيراً.. ولهذا السبب هربت إلى تريناكا.. أليس كذلك؟

حدقت آشلي به دون كلام.. كم هو مخطىء ومخطىء جداً.. مع ذلك فهو على صواب.. أطرقت تراقب الرمل الناعم يتسلل من بين أصابعها.. فتابع:

ـ العمل ليس كل شيء آشلي.. قد يكون شفاء لكل شيء، لكن في النهاية لن يكون كافياً.

برقت عيناها الكهرمانيتان:

ـ حقاً؟ لا تبدو لي هذا الغطة المناسبة لهذا الأحد.. فمما سمعته أن طموحك لا يعرف حدوداً. كل من ذكرك وصفك برجل حياته مخصصة لعمله ولا يسمح لأي شيء بأن يقف في طريقه.. ولا في طريق الوصول إلى منصب السفير..

صمتت فجأة تعي أن لسانها الساخط قد تمادى كثيراً.

نظر راندال إليها مقطباً للحظات، ثم بدا وكأنه توصل إلى قرار فقد وقف

بخفة ومد يده ليشدها ولتقف إلى جانبه.

ـ اذهبي وضعي عليك بعض الملابس.. هناك شيء أريدك أن تريه.

بدأت تحاول الاحتجاج، لكنه لملم أغراضها وأسرع بها نحو الحديقة قائلاً:

ـ سأذهب لأحضر السيارة.

واتجه بسرعة نحو منزله، بينما دخلت آشلي لترتدي ثيابها. استبقت البلوزة الزرقاء لكنها ارتدت بنطلوناً من القطن الأبيض ووضعت على رأسها قبعة من القش.

هل سترى، ربما، وجهاً آخر من وجوه راندال هولمان؟ وهل سيكون ما ستراه من الممكن استخدامه لمصلحتها؟

عاد بعد عشر دقائق، لكنها تعمدت تركه ينتظر وهي تتفحص أقفال البنغلو، ثم انضمت إليه ببرود.. لم يقل لها شيئاً بل اتجه إلى الطرف الجنوبي من الجزيرة.. ولو كان اليوم هو يوم الأحد، إلا أن الكثير من الناس كانوا يعملون في الحقول.

بدأت الطريق تتصاعد.. وسارا عبر ممر بين جبلين.. بعدما يقرب من الميل انعطف راندال عن الطريق الرئيسية إلى طريق وعرة تتلوى مرتفعة عبر التلال.. وصلا إلى فسحة اختفت الطريق بعدها، وقال:

ـ من هنا سنذهب سيراً على الأقدام. إنها مسافة قصيرة فقط.

وقادها في ممر تحفه الأشجار يُبعد الأغصان بحذر عن طريقها، ثم وصلا إلى قطعة أرض مفتوحة حيث شهقت آشلي ذهولاً. كانا يقفان فوق قطعة أرض خالية تقرب مساحتها من الفدان، ممهدة على سطح تلة شديدة الانحدار. كل ما حولها، مناظر ساحرة للجبال والوديان.. ومن بعيد منظر بطل على المحيط الهادر.

قالت بذهول:

ـ منظر يخطف الأبصار! وكأن المكان وكر نسر فوق قمة جبل!

ـ كيف يبدو لك منظر منزل هنا؟

ـ رائع.. منزل له الكثير من النوافذ والأبواب الزجاجية ليستطيع المرء

رؤية هذه المناظر الرائعة من كل غرفة.

أخذت تتأمل المنظر بحماس ثم استدارت إليه:

ـ لماذا جئت بي إلى هنا؟ أعني أن المنظر مذهل.. لكن هناك سبب آخر.. أليس كذلك؟

أخذها إلى جذع شجرة مقطوعة وجلسا عليها يواجهان الوادي.

ـ أجل.. هناك سبب. لقد اتهمتني أن لا شيء في حياتي سوى العمل.. حسناً، لدي هذا.

ـ أتعني أن المكان ملك لك؟

ـ أجل.. اكتشفته صدفة واشتريته على الفور. عندما يكون لدي وقت فراغ، أو أشعر برغبة في الوحدة، أجيء إلى هنا وأنظف الأرض لأعدها للبناء.

نظرت آشلي إليه مترددة: وهل تنوي بناء الموقع؟

ـ أجل.. أنوي بناء منزل فيه.

ـ كي تبيعه وتربح؟

ـ يا للأفكار الغريبة التي لك عني! لا.. فأنا أنوي أن أبني منزلاً لنفسي.

ـ لكنني ظننت..

قاطعها بخشونة:

ـ لقد قلت لك.. لديك أفكار غير منطقية أبداً عني.. حسن جداً.. أنا أحب عملي وأريد الوصول إلى القمة.. فهل هناك جريمة في هذا؟ لكنني مثل أي رجل آخر في مقتبل العمر.. أريد زوجة وعائلة وبيتاً أعود إليه.. وقد لا يكون هنا على الدوام، يمكن أن يكون في أي مكان من العالم.. لذا حاولي أن تتذكري هذا لو سمحت في المرة القادمة التي تستمعين فيها للأقاويل!

أحست باحمرار خديها.. إذن راندال ينوي بناء منزل ليتزوج من تونيا.. مخبأ في قمة الجبل. عش حب لا عش نسر!

قالت بصوت منخفض:

ـ آسفة.. لقد استنتجت أشياء خاطئة.

أدرك ارتباكها:

- كلنا نخطىء . . لقد أحببت الجبال منذ ذهبت إلى سويسرا لعطلة وأنا ولد صغير . . بعد ذلك، قمت بعدة رحلات تسلق وأنا في الجامعة، لكن والدي مات واضطررت إلى قضاء عطلاتي في بلدتي مع أمي وشقيقتي .

- بلدتك؟

- مكان يدعى النويك في ويلتشاير . . أتعرفينه؟

هزت رأسها نفياً، ممتنة للقبعة التي تظلل عينيها :

- ألا زالت أمك وأختك هناك؟

- أمي لا زالت هناك . . لكن أختي جيليان تعيش قرب لندن . إنها متزوجة من مهندس معماري ولديها ولدان رائعان .

- إذن سوف تستدعي صهرك ليصمم المنزل لك . . أي طراز تفكر فيه؟

بدأ يصف فكرته بحماسة، يرسم خريطة على قطعة تراب جافة بقطعة خشب . . لكن آشلي لم تكن تستمع . إذن أخته سعيدة مع زوج يحبها وولدين، وضمت قبضتيها دون وعي . . كان يجب أن تتزوج بن . . بن الذي أحب أخته أولاً . . لكن بن ميت . . حرق حياً في حادث سيارة بسبب هذا الرجل!

وقفت فجأة : متى ستبدأ البناء؟

وقف معها : قريباً جداً . .

- وما رأي تونيا وغرانت بالموقع؟

رفع حاجباً متسائلاً :

- لست أدري . . لم أخبر أحداً به بعد .

- إذن لقد حصلت على الشرف . . أم أنني الوحيدة التي اتهمتك بأنك طموح بشكل لا يرحم؟

- أنت هكذا بكل تأكيد!

أمسك ذراعها ليعيدها إلى السيارة وقادها إلى بلدة تريناكا، حيث أصر على أن يتناولا الغداء في مطعم صغير هادىء .

فيما بعد سألها :

- هل ترغبين في ممارسة الغطس بعد الظهر؟ أم نخرج في مركبي لبعض

دروس الإبحار؟

قررت أن قضاء الصباح برفقته يكفيها :

- لا . . شكراً لك . . لدي شيء لبعض الظهر .

- ألن تضجري لوحدك دون وجود الدكتور وزوجته؟

ردت بحدة لاذعة :

- لحسن الحظ أنا أحب أن أكون لوحدي . . شكراً لك .

- آه . . أجل . لقد نسيت أنك متحررة .

وكان للهجته رنة السخرية المعتادة، لكن ابتسامته سلبت من كلماته كل لؤم .

أوصلها إلى البنغلو، لكنه لم يتجه إلى منزله بل عاد باتجاه الجبال مرة أخرى . . وتساءلت عما إذا كان سينظف المزيد من أرضه، وتطلعت خلفه لفترة ثم هزت كتفيها ودخلت المنزل .

ازدادت حركة الحياة الاجتماعية بين السكان مع قدوم الصيف . . وأصبحت حفلات الشاطىء كثيرة . وأقام الزوجان ماكنزي حفلتهم الموعودة . عاد غرانت من رحلة مكافحة الآفة الزراعية، وخرج معها مرة أخرى للغطس .

في العديد من الحفلات لم تكن آشلي لوحدها من لاحظ أن راندال لم يعد يرافق تونيا . . فقد كان غالباً ما يأتي لوحده، وكان يرقص مع تونيا كما يرقص مع آشلي التي كانت فائقة الحذر في التصرف بشكل صحيح حين يراقصها، وكان كذلك يراقص العديد من النساء دون إظهار أي تفضيل . . مرة في غياب غرانت أوصل آشلي إلى المنزل من إحدى الحفلات . .

أقنعت كاتلين آشلي بمرافقتها في نزهة يوم الأحد بدل التفرج على مباريات «الكريكت» .

أخذتها كاتلين بالسيارة إلى مكان هادىء مهجور من الشاطىء حيث تركتا السيارة . .

وهما تسيران إلى الشاطىء لتسبحا قبل الغداء، تساءلت آشلي عما إذا كانت كاتلين تلتقي بماكميلان هنا لكنها صرفت الفكرة من رأسها . . فهذا ليس من

www.elromancia.com

شأنها.

سألت كاتلين بعفوية خادعة:

ـ كيف تشعرين وأنت هنا في تريناكا؟ لقد تمكنت من خلق حركة ما.. فالزوجات لم يكن لديهن مثل هذه الفرصة للقيل والقال منذ أشهر طويلة.

نظرت آشلي إليها بارتباك وتوقفت عن إفراغ سلة الطعام، في وقت كانت كاتلين مستلقية على ظهرها فوق بساط الشاطىء تحت أشعة الشمس تدخن سيكارة.

ـ خلقت حركة؟ ماذا تعنين؟

ـ أوه.. هيا الآن حلوتي.. لا داعي للتظاهر أمامي.. كل مجتمع تريناكا يتساءل لماذا لم يعد السيد راندال هولمان ذلك الأعزب الشهير يرافق الآنسة تونيا ويندهام إلى المناسبات الاجتماعية.. التوقعات والتخمينات وافرة جداً! هل تخاصم الاثنان؟ مستحيل فتونيا لا تجرؤ أبداً على الخلاف مع أحد في حياتها.. هل وجدت شخصاً آخر؟ أمر صعب وإلا لعرفنا كلنا بالأمر.. ثم، على أي حال، لا يوجد أحد.. لكن هل وجد راندال فتاة أخرى؟ هنا كان لدينا إمكانية على شكل الدكتورة الجميلة المتألقة آشلي باست.. أوليس كذلك؟

ونظرت بقسوة إلى ضحيتها.

ردت آشلي نظرتها دون قدرة على الكلام، ثم وبالرغم عنها بدأت تضحك.. لكن وجود شيء من الهستيريا في ضحكتها أمر لم تلحظه كاتلين، التي أجفلت تماماً لردة فعل آشلي. وسألت بصوت أقل وخزاً مما كان:

ـ أتعنين أنك لم تحاولي الفوز به؟

هزت آشلي رأسها بحزم وقالت:

ـ لا بد أنك مجنونة لظنك هذا.. أنا قانعة وسعيدة بعملي.. شكراً لك.

عبست كاتلين بحيرة وارتباك.

ـ إذن.. أتساءل لماذا.. حسناً، على أي حال، هذا إنذار لك حلوتي.. فلا تعجبي لو تلقيت نظرات باردة من اللايدي سمبسون ومن حولها.. كلهن يعتقدن أنك تريدين اختطاف راندال.

صاحت آشلي بسخط:

ـ لأجل السماء.. دعينا نأكل طعامنا ونتحدث بأمر آخر.

أكلتا، نامتا، ثم سبحتا قبل أن توضبا الأغراض في السلة استعداداً للعودة.

سألتها آشلي بعفوية وهما يضعان السلة في صندوق السيارة:

ـ هل ساعدك الدواء الذي وصفته لك؟

ـ بالتأكيد، إنه رائع.. ولقد طلبت من ماكميلان كتابة وصفة بالمزيد منه لي.

بدت كاتلين أقل توتراً وأملت آشلي أن تنتهي علاقتها بماكميلان.. إذ يجب أن تنتهي قبل التسبب بفضيحة مؤلمة لجوناثان.

بعد أسبوع من هذا دهشت لدعوة اللايدي سمبسون لها على فنجان شاي.

قالت مارتا لرؤيتها بطاقة الدعوة:

ـ عادة لا تدعو النساء إلا بعد وقت طويل على استقرارهن، فلا تندهشي لو أنها تطفلت على خلفيتك العائلية.. فهي تريد أن تعرف ما إذا كنت مساوية لها اجتماعياً.

أضاف ماك:

ـ ويعجبها أكثر لو لم تجدك مساوية لها!

وغمز لآشلي بينما مارتا تأمره بالابتعاد، فضحكت آشلي.

كانت تحس بالبرود والهدوء في بذلة بلون التفاح الأخضر من الكتان الناعم، وهي تقود سيارتها إلى مقر الحاكم في اليوم المحدد، وأوصلها ساقٍ متجهم إلى غرفة جلوس اللايدي سمبسون في مؤخرة البناء.

حيتها المضيفة:

ـ تفضلي بالدخول دكتورة باست.. ستتناول الشاي هنا بدلاً من غرفة الاستقبال.. إذ لا يوجد سوانا.

تساءلت آشلي لماذا لم تكن تونيا معهما، لكنها سرعان ما انشغلت بالرد على أسئلة المرأة الأكبر سناً.

- قال لي زوجي إن العيادات التي تؤسسينها قد انطلقت بنجاح.. هل كان لديك خبرة بهذا النوع من العمل في انكلترا؟

- أجل، حين كنت أمارس الطب العام وخلال آخر سنة لي في المستشفى.

- لا بد أنك تجدين العمل في جزر الهند الغربية مختلفاً؟

ردت دون الدخول في التفاصيل:

- لكنه ممتع جداً كذلك.

- لا بد أن تركك انكلترا كان صعباً عليك مع أنك يتيمة.. ألم يكن لديك.. ارتباطات في انكلترا؟

أحست آشلي أن ما قيل قبل الآن كان مجرد توطئة للسؤال الأخير.

تعمدت الجهل وسألت: ارتباطات؟

- أعني ألم يكن هناك شاب كنت مترددة في تركه؟

ردت بجرأة:

- لا لايدي سمبسون.. لم يكن هناك أحد.

- حسن جداً.. أتوقع أن تتاح لك فرص كثيرة للقاء شبان من عائلات مناسبة وأنت هنا. غرانت هيوارد مثلاً.. أعتقد أن شخصاً قال لي إنكما أصبحتما صديقين.

- أجل.. لقد كان لطيفاً جداً لتعليمي الغطس.

- إنه شخص لطيف.. لقد أحببته منذ تعيينه هنا.

تساءلت آشلي إلى أين يقود كل هذا؟

قررت اللايدي سمبسون تغيير الخطة:

- أنا دائماً أرتب حفلات صغيرة بين الشبان لأجل تونيا.. إنها ابنة عمي إضافة إلى سكرتيري.. وتعرفين هذا.. يجب أن تأتي أنت وغرانت للعبة رباعية في التنس. تونيا ورانداال يلعبان دائماً معاً بحيث سيفيدهما شيء من المنافسة.. راندال، بالطبع، سيصل إلى أرفع المناصب في الحكومة ومع وجود تونيا إلى جانبه، سوف يحقق أهدافه.. من المهم جداً لرجل أن يكون إلى جانبه الزوجة المناسبة. ألا توافقين على هذا دكتورة پاست؟ زوجة مستعدة لإعطاء كل

اهتمامها، ولتخصيص نفسها لزيادة نجاح عمله.

إذن هذا هو سبب الدعوة؟.. لمنع أية أفكار أرفع من مستواي في التدخل ما بين راندال وتونيا.. يا إلهي.. لو كانت تعلم! فجأة أحست آشلي بغضب بارد لتدخل اللايدي سمبسون.. هكذا وببطء أخذت قطعة كايك من طبق الخزف الصيني الفاخر قبل أن ترد:

- أخشى أنني كنت مشغولة جداً بعملي فلم أفكر كثيراً بالصفات التي تتحلى بها زوجات الموظفين الرسميين.. لكن على أي حال، هن زوجات فقط.. ألسن كذلك؟ وليس لهن مركز رسمي.

جعلت لهجتها قاطعة.. وترنح وقار المرأة الأخرى المصطنع قليلاً وهي تنظر إلى آشلي.. ثم هزت رأسها الأنيق إيجاباً:

- أنا مسرورة لأن عملك هو أول اهتماماتك، دكتورة پاست. وإذا تمسكت بهذا المبدأ، فلسوف تتقدمين كثيراً.

غيرت اللايدي سمبسون الموضوع بعد هذا بلباقة، وأصبح الحديث عادياً. في الساعة الخامسة بالضبط وقفت اللايدي لتشير إلى أن الزيارة قد انتهت، ورافقت آشلي بنفسها إلى الشرفة ذات العمدان البيضاء حيث ودعتها بكل وقار:

- ربما سأقوم بزيارة لأحد دروس الصحة العامة التي تقدمينها دكتورة پاست.. أو قد أرسل تونيا نائبة عني.. لقد آن لها أن تتولى شيئاً من واجباتي.

ابتسمت آشلي مدركة أن زوجة الحاكم نجحت في وضعها في مكانها الصحيح.. وفي مكان أدنى درجة منها ومن تونيا. لكن وهي تنطلق بالسيارة ببطء نحو المنزل، تساءلت عما إذا كان راندال وتونيا سيعلنان خطوبتهما قريباً.. صحيح أنها لم تتح لها فرصة الانتقام، إلا أنها يجب أن تجد الطريقة قريباً قبل إعلان الخطوبة.. فهي لا تريد إيلام تونيا معه.. فلا شيء لديها ضدها، بل الواقع، وفي المناسبات القليلة التي التقيا فيها، وجدت آشلي نفسها معجبة بالفتاة الأكبر سناً. وتنهدت ساخطة.. لو كان هناك فرصة أمامها!

كانت مباراة الكريكت لهذا الأحد مناسبة كبيرة، مباراة بين موظفي الحكومة وفريق ترينداكا الأول.. وتقام على أرض مخصصة خارج المقر الحكومي

مباشرة. كان راندال بارعاً سريعاً، وأبقت ضربات كرته المدافعين على أعصابهم، وتحولت المباراة إلى حدث مثير لأن الجانبين متماثلين قوة. . كان الدكتور ماك حارس المرمى وإلى جانبه ماكميلان كمساعد مدافع.

كان من المفترض أن تساعد آشلي مارتا والزوجات الباقيات في تحضير الشاي، لكنها لم تستطع مقاومة أن تطل من على شرفة السرادق بين حين وآخر لترى كيف تسير المباراة.

استرعى صوت ملحاح من الجموع أمام السياج انتباهها في وقت كان راندال فيه يحاول التصويب:

ـ دكتورة پاست. . دكتورة پاست!

رأت وجه شقيق فيليب، ميغال، ينظر إليها.

ـ هناك رسالة وصلت إلى المستشفى عبر الراديو دكتورة. يحتاجون إلى طبيب في جزيرة فوتونا. . هناك شخص مريض جداً.

تنهدت آشلي بإحباط. . لكنها ابتسمت لميغال وطلبت منه أن ينتظرها قرب المبنى. . عادت إلى الداخل وسعت إلى مارتا لتقول لها إنها ستذهب لتلبي حالة طارئة.

ضحكت مارتا:

ـ هذه عقوبة من يكون في الخدمة، هل أرسل رسالة إلى ماك في الملعب؟

ـ لا. . لن يكون هذا ضرورياً. . أكره أن أزعجه وسط أهم مباراة هذا الموسم.

حين وصلت مع ميغال إلى الرصيف، قفز إلى قارب بخاري وبدأ التحضير للخروج به إلى البحر. وسألته: أين فيليب؟

ـ عاد إلى مباراة الكريكت، قال إنني كبير بما يكفي لآخذك بمفردي.

ونفخ صدره النحيل بفخر.

سألت غير مصدقة:

ـ حقاً؟ تعني أنه لم يرغب أن تفوته المباراة، أليس كذلك؟

ضحك ميغال بخجل ووجدت آشلي أن من الصعب الغضب منه.

ـ حسن جداً ميغال. . فلنذهب. . أنت القبطان اليوم.

بالرغم من أنه في الخامسة عشرة، كان ميغال بحاراً متمرساً وأوصلها إلى فوتونا وهي جزيرة صغيرة على بعد خمسة عشر ميلاً من تريناكا، عدة مرات من قبل. .

مرت رحلتهما إلى فوتونا دون أحداث تذكر. وسرعان ما كانت آشلي تتفحص مريضتها الصغيرة ابنة أميركيين اشتريا فندقاً صغيراً على الجزيرة منذ سنتين. . وكان الوالدان ينتظران بقلق خارج المبنى الذي يحتوي على العيادة، بينما الممرضة المقيمة تساعد آشلي.

ـ متى جيء بها إلى هنا أيتها الممرضة؟

ـ قبل أن نتصل بكم مباشرة. . لقد خمنت أنها بحاجة إلى مساعدة على الفور.

ـ أنت على حق. . فالزائدة الدودية ملتهبة، ويجب أن نستأصلها في أسرع وقت ممكن بعد أخذها إلى تريناكا.

بسرعة أخبرت الوالدين ورتبت أمر إرسال رسالة تسبقها إلى المستشفى. . وقررت الأم السيدة كليفسون مرافقتهم إلى تريناكا، ودون انتظار الرد على الرسالة اللاسلكية، بدأت رحلة العودة بالفتاة جايسي وهي ممددة بسلام على المقعد الخشبي في القمرة الصغيرة، وأمها إلى جانبها.

صعدت آشلي لتقف إلى جانب ميغال عند الدفة ودهشت لقوة الريح. . أخرجت منديلاً حريرياً من حقيبتها وربطته حول شعرها لإبقائه عن التطاير. . كانت السماء الزرقاء موشّاة برقائق من السحب، والبحر على غير عادته مضطرب بموجات بيضاء تدفعها الريح تحت الموج.

صاحت لتجعل صوتها مسموعاً فوق عويل الريح. .

ـ هل هناك عاصفة قادمة؟

هز ميغال رأسه: هذا ما أعتقد دكتورة.

ـ ما مدى سوءها؟

ـ لا تقلقي آنسة. . سنصل الميناء قبل أن تنفجر.

ـ ميغال، هل تأكدت من حالة الطقس قبل أن نغادر؟

أشاح الولد برأسه إلى البعيد، لكن آشلي أمسكت كتفيه وجعلته يواجهها.. ولم يرد بل نظر باستحياء إلى أرض المركب.

ـ أنت لم تتأكد.. أليس كذلك؟

ـ لا.. دكتورة باست.. لقد نسيت.

ـ إذن من الأفضل أن تطلق العنان للزورق لنصل قبل انفجار العاصفة.

عادت إلى القمرة وتفحصت مريضتها، وتكلمت مع الأم التي لا تكبرها بكثير.. فجأة رفعت آشلي رأسها تصغي إلى صوت المحرك.. لقد تغير هديره الناعم المعتاد وبدأ يتقطع وينتفض. بسرعة ركضت إلى السطح لتجد ميغال ينظر حوله باضطراب.

ـ ماذا حدث؟

ـ لا أعرف آنسة..

وهو يتكلم «سعل» المحرك وتوقف.

ـ انزل والق نظرة على المحرك بينما أحافظ أنا على ثبات الزورق.

كانت الريح تعوّل بصوت مرتفع الآن، والقارب يتمايل مع الأمواج.. وسرعان ما أصبحت آشلي مبللة بالرذاذ.. هناك سترات واقية من الماء في إحدى خزائن القمرة وتعرف هذا، لكنها خشيت أن تترك المقود لتفتش عنها.. بعدما بدا لها دهراً عاد ميغال ويداه مليئتان بالشحم والزيت.

ـ أنا آسف دكتورة.. لقد توقف المحرك ولا أعرف كيف أصلحه.

ـ لكن، ميغال، يجب أن توصل الصغيرة إلى المستشفى فوراً!

لكن الشاب لم يكن يصغي، بل كان ينظر إلى السماء المكفهرة من حوله ثم إلى البوصلة.. ولحقت آشلي بنظرته، لتجد مرعوبة أن الإبرة تقفز وتترنح.

قالت وقد رأت الذعر في عينيه: ما هذه.. عاصفة كهربائية؟

ـ لا يا آنسة.. إنه إعصار!

لم يعلُ صوته بالكلمات.. بل قالها همساً.. وسمعتها آشلي بوضوح وكأنه يصبح عبر مكبر للصوت.. للحظات رفض دماغها العمل.. ثم، وبيأس،

حاولت أن تتذكر القليل مما تعرفه عن الأعاصير.. وتذكرت أن موسمها ما بين شهر تموز وشهر تشرين الأول.. لكن الوقت الآن هو بداية أيار.. ربما ارتكب الصبي غلطة وهذه مجرد عاصفة.. لكنها عرفت أنه غير مخطىء.. لقد عاش ليشهد الكثير منها ولن يخطىء الآن.

ـ يجب أن نرسل إشارات نجدة ضوئية.. كم واحدة لدينا؟

وجدا علبتين من أنوار الإنذار.

ـ أرسل واحدة الآن.. ثم أخرى بعد عشرين دقيقة.

كان القارب الصغير منخفضاً جداً في الماء.. لكنها أملت أن تتمكن إحدى السفن التي تتنقل بين الجزر من أن ترى الإشارة.. وأشعل ميغال الصاروخ الأول، وراقباه يتصاعد عالياً إلى السماء قبل أن يتفجر إلى كرة برتقالية اللهب.. وأرسلت آشلي الصبي لمحاولة تشغيل المحرك مجدداً، ثم ذهبت متجهمة لتخبر السيدة كلفسون ما حدث.. لكنها وجدت جايسي تتقيأ بعنف.. كان المركب يهتز مع الأمواج بالرغم من إقفال آشلي للدفة، ومع أن الأم كانت تقوم بما في وسعها لتعتني بابنتها، إلا أنها بدت على وشك أن تتقيأ هي كذلك بين لحظة وأخرى.. أعطتها آشلي أقراصاً مقاومة لدوار البحر، وأصرت أن تستلقي على المقعد الآخر.. حين تفحصت بطن الفتاة مرة أخرى بدأت تشعر بالقلق الحقيقي، وتمنت من كل قلبها وجود جهاز لاسلكي في القارب.. وقامت بما في وسعها للمريضة، ثم ارتدت السترة الواقية من الماء قبل الصعود مجدداً إلى السطح لإرسال الإشارة الثانية.

ـ هل هناك أي أثر لسفينة ما؟

هز ميغال رأسه وارتدى سترة الماء التي جاءته بها، ثم أمسكت المقود في محاولة يائسة لإبقاء الزورق مع الريح.. وأرسل الصبي الإشارة الثانية وتطلعا بلهفة في السماء، لكن السماء بقيت مظلمة، تنخفض إلى أن تكاد تطبق عليهما.

وحاول ميغال إفراغ بعض الماء المتجمع أسفل الزورق.. لكن كلما أسرع بالإفراغ، تصاعدت موجة لتصب رذاذها فوقهما. وأجبرت آشلي نفسها على

الانتظار عشرين دقيقة أخرى، ثم أرسلت الصاروخ الثالث.. وتصاعد الصاروخ برشاقة ثم انفجر كأي مفرقعة في حفلة ألعاب نارية.. وأخذا يفتشان في السماء بيأس.. ثم صاحا معاً باهتياج فمن مكان بعيد باتجاه الميسرة جاء الرد، بسرعة أدارت آشلي القارب وتركته يتجه نحو الضوء.. وكان عليهما إرسال صاروخين آخرين قبل أن يبرز المركب الآخر للنظر، ولدهشة آشلي تعرفت على لانش المستشفى. تلاصق المركبان ورمي حبل للتثبيت.. ونزل رجل في سترة واقية بحذر من اللانش، ثم قفز إلى سطح المركب المتصاعد والهابط برقة وحذر. للحظة تمسكت به آشلي بقوة وهو يوازن نفسه ثم قالت ضاحكة:

ـ كم أنا مسرورة لرؤيتك!

ـ حقاً آشلي؟

كان الصوت دافئاً دون سخرية وعرفته على الفور:

ـ راندال! لقد توقعت ماك أو ماكميلان.

ـ كلاهما مطلوب في المستشفى.. لقد تسبب الإعصار بأضرار وإصابات.. لكن دعينا نخرجك ومريضتك إلى اللانش أولاً.

سرعان ما أصبح الجميع فوق متن مركب المستشفى بأمان والقارب مربوط خلفه باتجاه تريناكا.

سعت آشلي بقلق لترى راندال:

ـ أخشى أن تكون حالة مريضتي سيئة جداً.. وإذا لم تُجرَ لها الجراحة فوراً، قد تنفجر الزائدة الدودية وقد لا أتمكن من إنقاذها.

ـ وهل تستطيعين إجراء الجراحة لوحدك؟

ـ أجل لكن ليس على هذا المركب.. إنه غير ثابت. هل هناك جزيرة أقرب من تريناكا حيث يمكن أن نرسو؟ لدي كل شيء أحتاجه على اللانش ويمكن أن أنقلها إلى الشاطىء بسرعة.

نظر راندال إليها وجبينه متجعد عبوساً وفمه مشدود.. ثم استدار إلى فيليب الواقف وراء الدفة:

ـ تلك الجزيرة القديمة التي كان القراصنة يستخدمونها تبعد ميلاً من هنا.. أليس كذلك؟

تفحص الخريطة بسرعة وأعطى اتجاهاً جديداً لفيليب.

سارت السفينة بأقصى سرعتها عبر العاصفة، وسرعان ما ظهرت الجزيرة أمام النظر وتولى راندال الدفة بنفسه لقيادة المركب عبر قناة من الرؤوس المرجانية تحرس المدخل إلى الجون الصغير.. وأدخل اللانش ثم أدار الدفة وأوقف المحرك.. كانت الجزيرة الصغيرة تماثل شكل حدوة جواد حول الجون.. إلى الجنوب قلعة قديمة تسيطر على الممر والبحر العميق من بعده.. لا عجب أن المكان كان يستخدمه القراصنة في الماضي.. إنه مخبأ ممتاز.

كانت الكهوف منتشرة من الأسفل إلى أعلى التل، وإلى واحد منها اقترح راندال أن يذهبوا لإجراء الجراحة.

ـ وماذا عن القلعة؟

ـ ليست جيدة.. فالسقف هابط، ومفتوحة إلى الهواء الطلق.. لكن هناك كهف كبير أظنه يفي بالمرام.

بسرعة أشارت إلى المعدات التي تحتاج إليها وبدأ راندال وأفراد الطاقم بحملها إلى الشاطىء.. كان مدخل الكهف نفقاً قصيراً وله قاعة رئيسية إلى اليسار.. بسرعة حضرت آشلي مكان العملية الاضطراري بالطاولة والعربة التي جلبوها من اللانش ورتبت معداتها.. ثم ابتسمت مشجعة للطفلة وأمها، لكنها استدارت إلى راندال لطلب العون، فالأم متوترة الأعصاب مصابة بدوار البحر ولن تكون بذات فائدة.. وبأسرع ما تستطيع، خدرت آشلي الصغيرة وبدأت الجراحة وكلها قلق من أن لا تكون الزائدة قد انفجرت.. وحمل لها راندال مصباحاً بحرياً.. أخيراً انتهت العملية على ما ترتضي وربطت آخر قطبة في بطن الفتاة ووضعت لها اللصوق. كانت الطفلة تتنفس بهدوء وسهولة، فاسترخت آشلي أخيراً تشعر بتعب شديد.

ابتسمت للسيدة كلفسون:

ـ ستنام جايسي طويلاً.. فتعالي لتجلسي قربها إذا أحببت.

أسرعت الأم إلى جانب ابنتها حيث أمسكت اليد الصغيرة المسترخية إلى خدها والدموع تجري دون خجل على وجهها.

كان المطر يهطل مدراراً من غيوم متثاقلة سوداء فوق مياه الجون المزبدة. وأتاهما صوت الإعصار رهيباً، بدائياً.

تقدم راندال منها ينظر إليها وفي عينيه نوايا دفينة.. الابتسامة الساخرة المعتادة لا وجود لها على شفتيه.. ببطء أحاطها بذراعيه يضمها بلطف ثم شدها إليه بقوة وعمق.. وأحست آشلي أنها عاجزة بين ذراعيه وكأنما العاصفة قد استنزفت كل قوتها على القتال. أحست وكأنها عالقة في قلب الإعصار.. فجأة عرفت أن هذا أمر محتم منذ البداية، فالقدر تسبب بكل هذا.. واستسلمت لعناقه.

ببطء وعلى مضض، تركها.. وهي تنظر إليه وعت الصمت حولهما.. لم يعد البحر أو الريح يصرخان ويرعدان.. سكت كل شيء، لكن دون شمس ولا تغريد طيور البحر.. بل حلّ هدوء ساكن يثير الخوف.

أحست آشلي بالذعر والضياع: ما الأمر..؟ هل انتهى الأعصار؟

قال بصوت منخفض:

ـ لا.. بقي نصفه، نحن الآن في وسطه.. والأسوأ قادم.

أجل.. الأسوأ قادم.. خاصة بالنسبة لراندال.. فقد رأت فجأة طريقها واضحاً أمامها.. فلو استطاعت جعله يقع في حبها، ووضعه تحت سيطرتها، ثم تؤلمه كما آلمها.. سيكون انتقامها أكبر مما يمكنها أن تأمل.

* * *

٥ ـ خطوة نحو الفخ

من مكان بعيد، سمعت آشلي رنين جرس هاتف وحاولت إجبار نفسها على الصحو.. هل هي في الخدمة ويجب أن ترد؟ حاولت أن تتذكر.. لكن بدا كل شيء غامضاً في رأسها.. ثم توقف الرنين واستدارت بكسل لتعود إلى النوم.. لكنها أحست ببطء أن أشعة الشمس تلمع من بين الستائر المغلقة.. أهو وقت النهار؟ لماذا هي في الفراش خلال النهار؟ ثم فجأة عادت أحداث اليوم السابق تتدافع إلى رأسها.. الإعصار! وكأنما تحاول أن تتذكر كابوساً، إنه موجود، مرعب، مخيف.. لكن تفاصيله كانت تعود مع كل دقيقة صحو.

لقد أمضوا جميعاً الليل كله في الكهف، ميغال، فيليب، الطاقم، السيدة كلفسون وجايسي، هي وراندال. ولم يعد هناك فرصة للكلام المنفرد بينهما بعد العناق الرهيب الذي لا ينسى.. فقد تقدم فيليب إليهما يقول إن جايسي تتحرك، فأسرعت آشلي إليها لتبقى إلى جانبها ما تبقى من الليل.

عندما بزغ الفجر، ظهر البحر حولهم هادئاً ناعماً مثل الزجاج، لكن سطحه كان يتحرك بتموج بطيء وكأنه يتذكر العاصفة التي مرت به. كانت السماء رمادية زرقاء دون غيوم، ما عدا بضع غيمات بيضاء والجون الصغير هادئاً منبسطاً. فوق الأفق الشرقي، أصبحت السماء حية بألوان جديدة.. وبدأت الأشجار والصخور، الرمل والماء، تستعيد الحياة من الشمس.. بدت الجزيرة كلها دافئة حية مرة أخرى..

أعيدت كل المعدات إلى اللانش وتناول الجميع طعام الفطور وهم عائدون إلى تريناكا، بمن فيهم جايسي.. كانت مارتا وماك بانتظارهم على رصيف

الميناء. وبعد تبادل العناق الحار المرحب، تولى ماك أمر السيدة كلفسون وجايسي، بينما رافقت مارتا آشلي إلى المنزل لتصغي إلى قصتها وهي تستحم، ثم أصرت على أن تذهب فوراً إلى الفراش.

نظرت آشلي إلى ساعة معصمها، ورأت أن الوقت هو المساء الباكر.. مع ذلك لم تحاول النهوض. وتساءلت ما إذا كان راندال أيضاً قد ذهب إلى منزله وفراشه.. لا تظن هذا.. فقد بدا لها من النوع القادر على تحمل ليلة في كهف وسط الاعصار بكل بساطة. على مضض أعادت تفكيرها مجدداً إلى الأحداث خلال فترة هدوء العاصفة. هل ما حدث كان بسبب غرائز رجل أثيرت بسبب بدائية الاعصار؟ غرائز يسيطر عليها عادة تحت تصرفاته المتمدنة الساحرة؟ لا.. فقدرته على امتلاك نفسه لا تسمح له إطلاقاً بالتصرف ضد إرادته.. واعترفت آشلي بهذا على مضض.

ببطء خرجت من فراشها وجلست أمام طاولة الزينة لتمشط شعرها.. لكن الفرشاة بقيت في يدها دون حراك، ونظرت صورتها إليها: الهالة الذهبية للخصل الحريرية.. العينان الكهرمانيتان الكبيرتان بظلال التعب تحتهما التي تزيد من لمعانهما.. لقد عانقها راندال هولمان لسبب بسيط: لقد أراد أن يضمها بين ذراعيه.. لأنه يريدها.. وعرفت أنه سرعان ما سيأتي ليطالب بها.. ليطلب منها ما وعدته به ذراعاها المستجيبتان.

تركت الفرشاة تقع من يدها مرتجفة، ووضعت رأسها بين يديها.. هل هذا هو قدرها؟ هل يجب أن تضحي بنفسها لعدوها، لرجل تكرهه، كي تتسبب بخرابه؟ حاولت بيأس أن تفكر بأي بديل آخر.. لكنها كانت قد فكرت وفكرت أكثر من ألف مرة من قبل.. ولا يبدو أن هناك طريقة أخرى بديلاً عن جعله يقع في حبها.

تحركت لتدخل الحمام ووقفت تحت الدوش.. ماء ساخن، ثم بارد، وهكذا دواليك ثلاث مرات.. وبدأت تشعر بالتحسن.. حسن جداً.. يجب أن تقبل.. لا مجال للتهرب.. وفكرت بسخرية: على الأقل سيكون في يدها سلاح مزدوج تستطيع به تحطيم مستقبله. شيء واحد مؤكد، إنه لن يترك هذه

العلاقة تقف في وجه عمله أو زواجه من تونيا، فهي جزء من عمله. لكنها لا تريد هذا.. لا تريده!

لفترة طويلة وقفت مسمرة وتفكيرها يتعارك مع غرائزها.. هذه.. «العلاقة».. ستكون ضد كل شيء آمنت به.. ألا يمكنها أن تغادر الجزيرة وتقول لأمها إنها فشلت؟ بالتأكيد لن تقبل هذا منها! لكنها تعرف بكل تأكيد أن أمها لا تتوقع هذا منها فقط.. بل تطالب به!

حين انضمت إلى مارتا في غرفة الجلوس، ترتدي بلوزة قصيرة الأكمام، وتنورة واسعة، كانت قد وضعت نفسها تحت سيطرة حديدية.. لا أثر للبؤس الداخلي على وجهها الذي زينته بدقة.

قالت مارتا بارتياح:

ـ ها أنت الآن.. أعتقد أنك جائعة. سمعتك تتحركين في غرفتك، فحضرت لك بيضاً مقلياً وسلطة.. تعالي واجلسي لتأكلي.

بينما كانت آشلي تأكل، أخذت مارتا تتحدث دون انقطاع عن الأضرار التي تسبب بها الإعصار وهي كانت خفيفة لحسن الحظ.

ـ كنا قلقين عليك وأنت في القارب الصغير والإعصار قريب.. من المؤسف أنك لم تنتظري الرد على رسالتك اللاسلكية.. لقد وبخ ماك ميغال وفيليب كثيراً.. كان يجب على ميغال أن يتفحص النشرة الجوية قبل الإبحار.. مع ذلك، فكل ما ينتهي جيداً هو جيد، كما يقال. وأنت بطلة حقاً، عزيزتي. تجرين عملية جراحية للزائدة الدودية في كهف!

كانت آشلي راضية بأن تجلس وتستمع لمجرد إبعاد تفكيرها عن محنتها.. لكنها لم تترك بسلام.. فقد قالت مارتا دون أن تدري أن كلماتها ستتسبب بأن تفلت آشلي شوكتها بحدة:

ـ لقد اتصل راندال.. يبدو متلهفاً للتحدث إليك فقلت له أن يتصل مجدداً حوالى الساعة الثامنة.. هل أنهيت طعامك؟ لا.. لا تزعجي نفسك، سأزيل الأطباق بنفسي.. لماذا لا تذهبين للجلوس في الحديقة؟ أعتقد أنكم معشر الأطباء لديكم دائماً الكثير من القراءة لملاحقة كل جديد.

التقطت آشلي بعض النشرات الطبية الحديثة ونزلت إلى الحديقة لتجلس في مواجهة البحر.. أخذت تنظر إلى المجلات بطريقة سريعة دون أن تقرأ شيئاً. حاولت أن لا تفكر بشيء أبداً.. لكن دون نجاح.

في الثامنة إلا خمس دقائق، رأته.. كان يسير على الشاطىء باتجاه البنغلو.. وشاهدها الآن. وهي تراقبه، بدا لها وكأنها كانت تنتظر لسنوات طويلة دون أن تعرف ماذا تنتظر.. لكن الفكرة تلاشت مع تقدمه، هذه ليست اللحظة التي تنتظرها.

قال بخفة:

ـ مرحباً آشلي.. دعينا نذهب إلى منزلي، هل هذا ممكن؟

استدارت لتسير بصمت فوق الشاطىء إلى جانبه.. لكن حين وصلا المنزل، لم يحاول أن يدخل إليه بل قادها إلى سيارته ونظر إليها ولمعان غريب في عينيه:

ـ أترغبين بالذهاب في مشوار بالسيارة؟

هزت رأسها إيجاباً.. لا تستطيع أن تتكلم. قاد سيارته إلى التلال.. لكنها لم تراقب إلى أين.. رأت السكان المحليين يعملون في تنقية حبوب الكاكاو بالرقص فوقها بأرجل عارية، مثلما يعامل الاسبان محاصيل العنب.. مع ذلك لم ترَ شيئاً.. كانت تعي فقط الوجود الغريب للرجل الذي إلى جانبها.. قوي جداً مصمم على أخذ ما يريد.

توقف أخيراً وقادها من بين الأشجار إلى فسحة.. وعرفت أين هما.

قالت بحيرة: لكن.. هذا موقع بيتك.

مرت على وجهه نظرة غريبة، نصفها ساخر ونصفها حنون، ومد يده إلى خصرها مبقياً إياها بعيدة عنه لينظر إلى وجهها.

ـ إلى أين تعتقدين أنني أرغب في أخذ الفتاة التي أريدها أن تكون زوجتي؟

تطلعت إليه بذهول غير قادرة على التفكير:

ـ زو.. زوجتك؟

ـ وما غير هذا ظننت أنني أنوي يا بريتني الحلوة؟

تمسكت بآخر كلمة دونما سبب:

ـ لست بريئة.. أنا طبيبة، وعمري خمسة وعشرون!

ـ ليس للبراءة دخل في المهنة أو العمر.. إنها حالة قلب وفكر.. حالة يجب حمايتها ورعايتها إلى أن تكوني مستعدة فعلاً لاختبار ما هو أعمق.

وضع إصبعاً تحت ذقنها وأجبرها على النظر إليه:

ـ وأنت لم يكن لك مثل هذه العلاقة مع رجل من قبل.. أليس كذلك آشلي؟

خرجت الكلمة من فمها بقوة: لا.

ـ كنت مخطئاً.. فأنت لست هاربة من شخص ما في انكلترا؟

ـ لا.

تنهد: أحبك آشلي.. ولقد أحببتك منذ رأيتك ترقصين مع ماك في مقر الحاكم.

ـ لكن.. لا يمكنك أن..

ولم تستطع لفظ كلمة الحب.. وأكملت:

ـ لا يمكنك أن.. ترغب في الزواج مني.. في كل مرة نلتقي نتجادل ونهاجم بعضنا بعضاً.

ابتعدت عنه بحدة:

ـ في حفلة كاتلين.. كنت بغيضاً معي!

ـ آشلي.. ألم تتعرفي على السبب بعد؟ ألم تعرفي لماذا ترتجفين كلما لامستك؟ ألا تربن أن هذا العداء الذي تشعرين به هو غريزة أساسية للمحافظة على استقلاليتك؟ كي لا تدعك تعترفين لنفسك بمشاعرك الحقيقية؟

شدها بقسوة إلى ذراعيه وقال بصوت أجش:

ـ لا تقاوميني بعد اليوم حبيبتي.. كنت أنتظرك بفارغ الصبر لتتعرفي على ما في قلبك منذ زمن. وإذا كنت لا زلت لا تعرفين، فذلك العناق خلال الإعصار لا بد أخبرك بالكثير.. وعرفت أنني سآتي إليك هذه الليلة.. أليس كذلك؟

ـ أجل.

لم تكن الكلمة أكثر من همسة، إذن يعتقد أن ردة فعلها معه حب لم تتعرف عليه؟.. في وقت كان طوال الوقت كراهية، كره عميق! تخلصت من بين ذراعيه:

ـ لكنك كنت ستتزوج تونيا.. الجميع قال هذا.

رد ببطء:

ـ ربما كنت سأفعل.. إنها صديقة جيدة وتعجبني، حتى شاهدتك كالكوكب الذهبي الشعر.

حاول الوصول إليها مجدداً.. فراوغته:

ـ لن أتخلى عن عملي مقابل أي شيء.

ـ ولن أطلب منك هذا أبداً.. كنت خائفاً من أن يكون حبك لعملك هو الذي يدفع عقلك اللاوعي لمحاربة مشاعرك نحوي.. في كل مرة كان يذكر فيها عملك كنت تهيئ للدفاع.. لكنني أريدك أن تحتفظي بعملك كما لي عملي تماماً.

لثالث مرة احتواها بين ذراعيه، لكنه هذه المرة لم يقبل بأن تراوغه.. وأدركت بخفقان مؤلم في قلبها أنه يمازحها:

ـ والآن.. دكتورة پاست، هل هناك سبب آخر يمكنك التفكير به يمنع زواجك مني؟

نظرت إليه ووجهها شاحب في نور المساء الخفيف.. هناك سبب وجيه جداً تستطيع التفكير به.. لكن لا أحد يقول لخصمه أنه وضع نفسه تحت سيطرته بالكامل.. وقالت ببطء: لا..

ـ إذن.. ستتزوجيني آشلي؟

إذن ستكون زوجته، وليس عشيقته.. حسن جداً.. لا فارق في هذا.. فستجعل دماره كاملاً وأكثر بؤساً.

قالت بثبات: نعم سأتزوجك.

* * *

٦ ـ لا شيء يمنعه

كانت العيادة في «لوردزتاون»، البلدة الساحلية الصغيرة الواقعة إلى الشرق من ساحل تريناكا، تضج بأصوات العشرات من الأولاد وأمهاتهم. وكانت آشلي تقوم بزيارتها الشهرية لإعطاء الحقن والفحوصات العامة للأطفال قبل دخولهم المدرسة، والرد على أية مشكلة تواجهها الأمهات.. كان العديد من الأطفال الصغار يبكي بصوت مرتفع بينما الأمهات في انتظار أدوارهن. وغالباً ما كانت العمات والخالات والجدات يأتين كذلك، فهم يعتبرون هذه مناسبة اجتماعية.

قالت آشلي للممرضة الشابة وهي تنظر بقلق إلى الغرفة المليئة:

ـ المريضة التالية أرجوك أيتها الممرضة.

ضحكت الفتاة:

ـ لن يذهبن قبل أن ترين آخر واحدة منهن.

كانت خطبتها إلى راندال قد وضعتها في موقف حرج تجاه ماكميلان، وجرحها تعليقه:

ـ قلت إنك ستكونين أكثر اهتماماً بعملك من الزواج!.. ولقد جعلتني أكاد أصدق؟ حسن جداً.. أتمنى لك السعادة بزواجك آشلي.. وأتمنى أن يكون الشيطان المسكين يعرف ما يورط نفسه به!

وخرج من المكتب صافقاً الباب وراءه.. وابتسمت آشلي دون مرح.. لا.. راندال لا يعرف حقاً ما ورط نفسه فيه.. ليس بعد.. لكن عما قريب ستعرف كل تريناكا.

كان هناك ردات فعل متنوعة على الخطوبة التي أصر راندال على نشرها في الصحيفة المحلية.. عرف مارتا وماك بالأمر منها مسبقاً بالطبع.. وكانا سعيدين لها، ولو أنها ضبطت مرتين ماك ينظر إليها مفكراً..

اتصلت كاتلين تهنئها بحبور.. مقتنعة أن آشلي نجحت في اختطاف راندال من تحت أنف تونيا.. ووردت رسالة صارمة من الحاكم وزوجته مهنئة ورسالة أقل رسمية لكن أكثر اختصاراً من غرانت.

أخيراً انتهى العمل في العيادة، وتمكنت آشلي من غسل يديها وترتيب نفسها قبل العودة إلى البنغلو للعشاء. وهي تعيد علبة التبرج إلى مكانها في الحقيبة، تطلعت إلى علبة المجوهرات التي تضع خاتم خطوبتها فيها. كانت تتذرع بأن من غير المناسب أن تضعه وهي تعمل وأبقت الخاتم الزفير المحاط بالألماس في حقيبة يدها معظم الوقت.. لكنها لم تستطع منع نفسها من الشعور بالذنب كلما وضعته في إصبعها.

كان راندال قد قال لها وهو يضع الخاتم في إصبعها:

ـ إنه حلية عائلية.. تعطى عادة لخطيبة الابن الأكبر في العائلة. كتبت لأمي وطلبت أن ترسله لي ليلة التقيت بك.

قادت الميني في الطريق إلى بلدة ترياكا. كان هناك الكثير من الرجال عائدين من أعمالهم على الدراجات الهوائية، وقادت بحذر بينهم.. في منتصف الطريق تقريباً، خرجت عن الطريق إلى مرجة قريبة وأطفأت المحرك.. إنها بحاجة إلى وقت قصير لتخلو إلى نفسها.. وقت لتضع على وجهها قناع العروس المترقبة السعيدة أمام مارتا.. وابتسمت لنفسها.. لقد خاب أمل مارتا كثيراً حين قيل لها إن الزواج لن يقام في الكنيسة الإنكليزية الطراز من الحجر الموجودة على الجزيرة.. لكن في مكتب صغير لمسجل العقود. وكانت محبطة بقدر ما كان راندال محبطاً.. لقد ظن أن من المسلم به أن يتزوجا في الكنيسة.. لكن آشلي رفضت دون مجال للجدال.. حاول إقناعها ومراوغتها لكنها أصرت.. كانت متأكدة أنها لن تستطيع الوقوف أمام المذبح لتقسم القسم المقدس الذي لا تنوي أبداً الوفاء به.

لكن لم يتزوجا أمام مسجل العقود حتى.. فقد تدخل الحاكم وأصر على استخدام المقر لمراسم الزواج، فالمكان مرخص به للعقود أيضاً. وبدا من الطبيعي أن تتقدم اللايدي سمبسون بعرض استخدام المرجة أمام المقر لحفل الاستقبال، وخمنت آشلي أن راندال وراء العرض.. لكن في هذا الأمر ظلمت اللايدي سمبسون لأن السير موريس وزوجته يكنان لراندال محبة كبيرة. ولو كانا لا يوافقان على اختياره، إلا أنهما كانا مستعدين لفعل ما بوسعهما لأجله.

كان أصعب أمر محاولة تقرير ما إذا كانت ستكتب إلى أمها لتزف إليها الخبر.. فكرت ملياً بالمشكلة ثم قررت الانتظار إلى أن ينتهي كل شيء.. وكان راندال قد تسبب لها بارتباك في أحد الأيام حين سألها ما إذا كانت تريد حضور عمتها التي ادعت أنها ربتها إلى ترياكا لحضور الزفاف.

قالت مسرعة جداً: أوه لا.. لن يكون هذا ضرورياً.

ـ ألن تحب أن تراك وأنت تتزوجين؟

ـ لن تغادر انكلترا.. تكره السفر و.. لسنا على تقارب.

يومها قالت هذا كعذر.. لكنها عرفت الآن أن هذا حقيقي.. فغياب أمها عنها جعلها تدرك مدى ضعف علاقتهما ونقص أي عمق في المشاعر من ناحية أمها.. وأجبرت نفسها على السؤال:

ـ ماذا عن أمك؟ هل ستأتي؟

ـ لسوء الحظ لا.. فأختي تتوقع مولودها الثالث وتريد أمي البقاء معها.

أحست آشلي بموجة ارتياح.. إنها لا تذكر أبداً أنها التقت بالسيدة هولمان، لكن هناك دائماً إمكانية أن تتعرف عليها الأم.. وأكمل راندال:

ـ إنها محبطة مثلي أنا.. لكنني بالطبع لا أنوي الانتظار إلى أن تستطيع المجيء إلى ترياكا.. لا أعتقد أنني قادر على الانتظار إلى هذا المدى.

احمرت آشلي ونظرت بعيداً.. وللحظات تفحص وجهها الموارب، ثم قبل إصبعه ولامس ذقنها في إشارة أصبحت مألوفة لها.

بدت لها ليلة الاعصار بعيدة.. وتلاشت التفاصيل ما عدا الوقائع الأساسية التي بقيت في الذاكرة.. تنهدت آشلي ونظرت إلى ساعتها لترى أنها

يجب أن تسرع وإلا تأخرت عن العشاء، وكان ماك سيذهب إلى النادي في ترياناكا تلك الليلة لحضور حفلة وداع راندال للعزوبية بينما ستذهب مارتا إلى مقر الحاكم لبعض الترتيبات الأخيرة لحفل الزفاف مع اللايدي سمبسون.

سمعت صوت السيارة تبتعد، تقودها مارتا لتوصل ماك إلى المستشفى قبل ذهابها إلى مقر الحاكم. فعادت إلى غرفة الجلوس محاولة أن تشغل نفسها بمجلة. لكنها وضعتها من يدها بعد دقائق وأخذت تسير في الغرفة بقلق.. اختارت اسطوانة وضعتها في الستيريو.. لكنها كانت أغنية حب فأوقفتها ووضعت موسيقى بدلاً منها، ورفعت الصوت عالياً كي لا تصغي إلى نفسها وهي تفكر.. ثم استلقت في مقعد وثير وتركت الموسيقى الصاخبة تستولي عليها.

كان الصوت مرتفعاً جداً بحيث لم تسمع صوت سيارة تقترب ولا قرع جرس الباب.. وقفزت مذعورة لملامسة يد لكتفها.. فتحت عينيها لترى أمامها تونيا ويندهام تنظر إليها مترددة.

ـ أنا آسفة جداً.. لم أسمعك تدخلين.. الموسيقى...

وقفزت واقفة، ثم أسرعت لتطفىء جهاز الستيريو.

ـ أخشى أن لا تكون مارتا في المنزل.. لقد ذهبت إلى المقر لرؤية اللايدي سمبسون.. لكنك بالتأكيد تعرفين هذا..

وصمتت تتساءل ما الذي جاء بالفتاة الأخرى.

ـ أجل.. أجل.. أعرف. ولهذا جئت هذه الليلة. أعرف أن الدكتور وزوجته ليسا هنا.. أنا.. أردت التحدث إليك.

أمسكت تونيا حقيبة يدها بكلتا يديها تشد عليها. وأدركت آشلي أنها متوترة جداً.. على الفور حاولت إراحة تونيا:

ـ ألن تجلسي.. كنت سأعدّ لتوي بعض الليمونادة.. فهل تشاركيني؟

هزت تونيا رأسها موافقة فسارعت آشلي إلى المطبخ تصب الشراب ثم عادت لتعطيها كأسها، وشكرتها تونيا بأدب.. تقدمت آشلي إلى مقعدها وجلست تشعر بالذنب.. للفتاة مطلق الحق بكراهيتها لأخذها راندال منها..

وتساءلت بقلق ما إذا كانت قد جاءت لتقول لها هذا.. لتقول لها رأيها فيها بالضبط.

ببطء، وبصعوبة ظاهرة، قالت تونيا:

ـ أعرف أنك حين وصلت إلى هنا، لاحظت أن راندال وأنا كنا نذهب إلى الحفلات وما شابه معاً كثيراً؟

ردت آشلي بقلب غائص:

ـ أجل.. أعتقد أنني لاحظت هذا.

ـ كان هناك شائعات يومها.. شائعات عن راندال وعني.. حسناً.. أنا..

قاطعتها آشلي بارتباك:

ـ اسمعي.. أرجوك لا تكملي.

رفعت تونيا ذقنها إلى الأمام:

ـ أوه.. لكن يجب أن أكمل.

تنهدت آشلي، وتراجعت في مقعدها إلى الوراء مستعدة لتلقي كل ما ترميها تونيا به.

ـ أعرف أن هناك.. أشخاص.. كانوا يأملون بـ.. علاقة بيننا.. وكنا.. كنا.. مجرد صديقين. وأريد أن أخبرك بنفسي أنه لم يكن بيننا أي شيء إطلاقاً.. في الواقع. وأنا واثقة أن راندال أخبرك بهذا.. لكن كان يشغل بالي أنك قد تكونين قلقة من وجود علاقة.. وأن راندال لا يزال يكن لي بعض المشاعر.. وأؤكد لك عكس ذلك تماماً.

نظرت إلى آشلي بلهفة وتقطية قلق، وكأنها تخشى أن لا تصدقها.

ـ تونيا.. لست أدري ما أقول.. ما فعلته.. أمر مميز جداً.. أن تأتي إلى هنا وتقولي ما قلته.. لقد قال لي راندال إنكما كنتما صديقين عظيمين.. والآن أستطيع رؤية السبب.

احمرّ وجه الفتاة الأكبر سناً بالسعادة، وشغلت نفسها بشرابها.. وبدا أن شرابها أعطاها بعض الراحة والشجاعة.. وقالت بثقة:

ـ في الواقع.. كنت أعرف أنني لن أكون سعيدة أبداً كزوجة لرسمي كبير حتى ولو طلب راندال يدي. أنا في طبيعتي خجولة.. إنني أتوتر جداً حين أضطر لمقابلة المهمين من الناس.. أخشى دائماً أن أقول الشيء الخاطىء فأجلس ولا أقول كلمة.

ـ يا للسماء تونيا.. لم يكن لدي فكرة عن هذا.. لكن لماذا تبقين هنا إذا كنت تكرهين هذا؟

ـ حين ماتت أمي، لم يكن لي مكان آخر أذهب إليه وأخذتني بريتانس تحت جناحها.. وأعتقد بما أن ليس لها أولاد فقد تعلقت بي وأصبحت طموحة فيما يخصني.. ولأن السير موريس يحب راندال جداً، بدا من الطبيعي أن تحاول جمعنا معاً.. ليس لدي أية مؤهلات ولا مهنة.. لست مثلك!

وتنهدت بحزن وارتشفت شرابها.

ـ أنا أحسدك آشلي.. أنت واثقة النفس ولك استقلاليتك.. ولست بحاجة للاعتماد على عطف الأقرباء للسكن والعيش. حتى أنك لست مضطرة للزواج إذا كنت لا تريدين.. بينما هذا هو الشيء الوحيد الباقي مفتوحاً في وجهي، إذا كنت لا أريد أن أكون تحت رحمة بريتانس ما تبقى من حياتي.

وفكرت آشلي أنها لو لم تأت إلى تريناكا تعطشاً للانتقام، لكان راندال وتونيا تزوجا في نهاية الأمر.. ولكان لتونيا بيت لها ولن تبقى تحت رحمة اللايدي سمبسون.. ولكان راندال لطيفاً معها ولو أنه لا يحبها.

مع استرخاء تونيا، أخذت تتحدث عن طفولتها في غربي البلاد وقالت ضاحكة:

ـ أتعرفين ماذا أحب فعلاً؟ كنت أحب أن أدير أرضاً زراعية للتجارة.

ـ أرضاً زراعية؟ أوه تونيا.. لا عجب أنك لا تطيقين المقر.

ـ أعرف.. الأمر سخيف جداً.

لم يعد هناك حواجز بين الفتاتين وتحدثتا وضحكتا لساعة أخرى قبل أن تعود تونيا إلى المقر.

ببطء غسلت آشلي الأكواب.. أعجبت بتونيا لمجيئها إلى هنا لرؤيتها، مما

زاد في حدة إحساسها بالذنب. بدت الحاجة إلى الانتقام واهنة وهي تفكر باضطرار تونيا إلى العيش لما تبقى من حياتها بطريقة تكرهها.. لكن ربما لم يفت الوقت بعد! فجأة رمت منشفة المطبخ من يدها وذهبت إلى غرفة نومها لتسحب حقيبتين من خزانتها.. بسرعة بدأت ترمي بعض الملابس فيهما مع أشيائها الثمينة.. ثم غيرت ملابسها.

سمعت دقاً على الباب وأطلت مارتا برأسها:

ـ هل أنت في السرير عزيزتي؟

ثم صمتت مجفلة وهي ترى الحقائب.

ـ آشلي.. ماذا تفعلين بحق السماء؟

ـ سأرحل! أنا آسفة مارتا لكنني لن أكمل الطريق.

نظرت مارتا إليها بارتباك:

ـ عادت تونيا إلى المقر قبل مغادرتي له بقليل وقالت إنها جاءت لتراك.. وأعتقد أنكما تحدثتما معاً.

ـ أجل.. وما دخل هذا بقراري؟ مارتا.. هل من الممكن أن توصليني إلى المطار؟ لو أسرعت فسيكون لدي وقت لأستقل طائرة جامايكا الليلة.

ـ أخشى أن لا أكون على استعداد للخروج مجدداً الليلة.. ربما من الأفضل أن تنتظري إلى الصباح وتعطي نفسك فرصة للتفكير.

قالت بشراسة: أوه مارتا.. أنا آسفة حقاً لإفسادي كل خططك.. لكن ألا ترين؟ كان كل شيء غلطة رهيبة ولن أستطيع إكمال الطريق!

لقد ظنت مارتا أنها تعني الزواج بالطبع.. لكن آشلي كانت تعني الأحداث التي خططت لها بعد الزواج.

توصلت مارتا إلى قرار:

ـ حسن جداً.. إذا كان هذا ما تريدين، سأتصل بوسيلة نقل لك.

خرجت بينما أنهت آشلي توضيب حقائبها.. هل يجب أن تكتب رسالة لراندال؟ ماذا يمكنها أن تكتب أكثر من الوقائع الصريحة: «لا أريد الزواج بك.. أنا راحلة»؟ لن تقول له الحقيقة بكل تأكيد وأملت أن يعود هو وتونيا

معاً مرة أخرى. وسمعت سيارة تتوقف في الخارج فحملت حقائبها إلى غرفة الجلوس.. لم يكن هناك أثر لمارتا، ربما خرجت إلى الشرفة.

لكن مارتا لم تكن على الشرفة.. ونادت السائق، طيف طويل يقف قرب السيارة في الظلام:

ـ ضع حقائبي في السيارة أرجوك.. لن أتأخر.

تجاوزته لتفتش عن مارتا في الحديقة.. لكن وهي تمر به تحرك بسرعة وأمسك معصمها وشدها لتستدير وتواجهه.

ـ راندال!

أحست أن داخلها كله أصيب بالجمود.

ـ لماذا.. لماذا أنت هنا؟

ـ أرسلت مارتا بطلبي.. يبدو أنها ظنت بأن وجودي ضروري.

نظر إلى وجهها المذعور ثم دس ذراعه بذراعها فاضطرت للسير معه.

ـ دعينا ننزل إلى الشاطىء.. ممكن؟

ـ راندال أرجوك.. أنت لا تفهم.

ـ لا أفهم! بل أؤكد لك أنني أفهم.

وصلا الشاطىء لكنها كانت صماء عن صوت الأمواج وتنهد الريح في الأشجار.. بدا لها أنيقاً جداً في بذلة سهرة سوداء.. لكن كان في عينيه لمعان غريب أخافها.

ـ إذن أنت وتونيا تحدثتما.. أليس كذلك؟ حديث من القلب إلى القلب، انتهى بقيادة تونيا السيارة فوق مرجة المقر وكادت تنتهي في البركة.. بينما وضبت أنت حقائبك وكنت ستتجهين إلى أول طائرة تأخذك إلى انكلترا! وتلاشت حفلة توديع عزوبيتي أمام كل هذا.

نظرت إليه.. إنه يضحك عليها! كيف يجرؤ؟ بغضب حاولت إفلات نفسها منه.. لكنه لم يتركها وضحك بصوت مرتفع.. رفعت يدها الحرة لتضرب صدره، لكنه أمسكها بسهولة ودفع بذراعيها إلى خلف ظهرها ممسكاً معصميها بيد واحدة.

ـ أيتها النارية الصغيرة! كم سأتمتع بترويضك.

ثم وبابتسامة على شفتيه أكمل بلطف:

ـ أوه.. يا حبيبتي الحلوة المثيرة! أتظنين أنني سأتركك ترحلين حقاً؟ لقد وعدتني، أتذكرين؟

أحنى رأسه يعانقها.. وأحست بالقشعريرة ما إن لامسها.

ـ ألا تعلمين أنك لو هربت إلى أي مكان فسألحق بك وأعيدك؟

نظرت إليه.. وبدأ الإحساس بالأمر المحتم في الاستيلاء على أحاسيسها:

ـ أكنت ستلحق بي؟

ـ طبعاً.

حاولت آخر محاولة يائسة:

ـ راندال.. يجب أن تتركني أرحل.

ـ أبداً! لا شيء، ولا أحد، حتى أنت حبيبتي، سيمنعني من جعلك زوجتي.

شدها إليه وأحست بقوته على جسمها.. عانقها ببطء وهدوء يتركها تعرف أنها ملك إرادته وأنها بعد أقل من ثمان وأربعين ساعة ستكون له كاملاً.

ورغم أن جسمها كان يرتجف إحساساً به فقد أجبرت دماغها أن يتذكر أنها بعد أيام قليلة ستتخلص منه من تريناكا وإلى الأبد!

كان مركب راندال ينتظر حين وصلا رصيف الميناء.. وكان شخص ما قد غطى المقدمة والسطح والسياج بالشرائط الحريرية والزهور.

وصاحت مارتا:

ـ انظروا إلى هذا! يا لها من طريقة ممتازة للسفر في شهر العسل في قارب مغطى بالزهور! يجب أن أحضر ماك لنلتقط الصور.

وابتعدت مسرعة تفتش عن ماك بين الجموع المتمنية كل خير للعريسين.. وللذين لحقوا بهما في قافلة سيارات من حفل الاستقبال في المقر لتوديعهما في رحلة شهر العسل.

كان الضيوف يضحكون وهم ينثرون الأرز والحلوى على الزوجين..

وصاح الصيادون الضاحكون وركض الأولاد بين الجمع لالتقاط الحلوى المتساقطة وقطع الورق الملوّن لرميها على بعضهم.. وطلب ماك من الجميع اتخاذ وضعية للتصوير لآخر مرة.. ثم ودعت آشلي الجميع.. وحضنت ماك ومارتا شاكرة لهما كل ما فعلاه لأجلها، قبل أن يمسك راندال ذراعها بحزم ويكاد يرفعها عن رصيف الميناء إلى المركب.. ورفع غرانت حبل المرساة وهو كان شاهد زواجهما.. ثم أدار راندال المحرك وبدأ المركب بالتحرك من الميناء بينما كانت المراكب الباقية تطلق صفاراتها تحية لهما.. وقفت آشلي تتمسك بالسياج تلوّح بيدها إلى أن خرجا من الميناء إلى البحر المفتوح.

كان الجميع لطيفاً.. قدّم السير موريس واللايدي سمبسون هدية عرس ممتازة وكانت تمنياتهما صادقة.. حتى ماكميلان أصر على معانقة العروس. وجاء لوداعهما مع آرينا.. وغني عن القول ما قدمه ماك ومارتا.. وأحست بسعادة غامرة وهي تتذكر الطريقة التي شجعاها بها وساعداها.. وتركها ماك تمسك بيده بشدة وهو يوصلها إلى عريسها.. ثم ساعدتها مارتا على تغيير ثوب العرس إلى بذلة رقيقة بلون العاج دون أكمام.. ولوحا لها بفرح يتوقعان غيابهما لثلاثة أسابيع على الأقل.. ستكون صدمة رهيبة للجميع حين تعود في اليوم التالي!

ببطء استدارت لتنضم إلى راندال في غرفة القيادة.. يجب أن تلعب دورها ببراعة في هذه التمثيلية لفترة أطول.. ومد يده إليها ولم تتردد في الوقوف إلى جانبه لتسأل:

ـ أي اتجاه سنأخذ؟

السؤال عادي.. لكنه مهم جداً لها.. فسرعان ما ستعود بالمركب لوحدها ويجب أن تتأكد من أن تجد الطريق.

ـ سنبحر غرباً خمس وعشرين ميلاً إلى أن نصل جزيرة «جاباليكي» الصغيرة.

كانت هذه جزيرة مرجانية صغيرة، أعارها صديق لراندال اسمه سكوت لهما لقضاء شهر عسلهما.. فيها بنغلو صغير لكن ضخم.. ليس فيها أبنية

أخرى، ولا سكان. وكانت مارتا قد قالت حين أخبرتها بهذا:

ـ يا له من مكان خيالي لشهر عسل.. رومانسي جداً أن يكون المرء لوحده مع زوجته في جزيرة خالية.

وفكرت آشلي أن المكان فعلاً خيالي لو أنهما ذاهبان هناك فعلاً لقضاء شهر عسل.

ـ هل ترغبين في الإمساك بالدفة لفترة؟

وفعلت آشلي هذا بفرح، فهي لم تقد مركبه سوى مرة واحدة وكانت حذرة كي لا يعرف أنها تعلمت الإبحار بمركب المستشفى.. لكن لا بأس أن تعتاد على الإحساس بالمركب قبل أن تتولى قيادته لوحدها.

ـ لماذا كل هذه الساعات والعدادات؟

بصبر أخذ يشرح لها كل شيء على حدة وهو يضع ذراعه على كتفيها.. وقال:

ـ أتعرفين سيدة هولمان أظننا سنجعل منك بحاراً جيداً.

فجأة تركت الدفة، فسارع يمسكها قبل أن يتحول مسار المركب.. وقالت:

ـ أشعر بحرارة شديدة.. سأنزل إلى القمرة وأخلع سترتي.

خلع سترته بدوره:

ـ فكرة جيدة.. خذي سترتي معك لو سمحت.

تحت السترة كان يرتدي قميصاً واسعاً لكنها استطاعت أن ترى العضلات تتحرك تحته. استدارت بسرعة ونزلت إلى القمرة.. راندال قوي جسدياً ويمكنه التغلب عليها بسهولة.. وإذا اكتشف أمرها.. إذا حدث أي شيء بطريقة خاطئة!

بقيت في القمرة قدر ما استطاعت ثم عادت إلى غرفة القيادة.. ولم يعلق على غيابها بل أخذ يتحدث عن حفل الاستقبال.. هنا هي آمنة وتستطيع الحديث معه بحرّية.. في الواقع جعلها أكثر من مرة تضحك وهو يذكر بعض الأشياء المسلية.. خلال الحديث غيّر الاتجاه ورأت آشلي بقعة أرض تظهر في

الأفق، وشدت بيديها على السياج وهي تميل إلى الأمام. فأخذ راندال يفلت لها أصابعها عن السياج ويتلاعب بها بيد دافئة قوية.

ـ سوف نكون هناك عما قليل.

وأعطاها ابتسامة تشجيع وتمكنت من الرد بابتسامة صغيرة حقيقية.

كانت الجزيرة فعلاً مكاناً رائعاً: جزيرة مرجانية مستديرة مليئة بأشجار النخيل، وشاطىء منحنٍ من الرمل المرجاني الأبيض حول جون هادىء، وبنغلو جميل الموقع له مولد كهربائي خاص.

سألت آشلي:

ـ من يعتني بالمنزل؟ بالتأكيد صديقك لا يتركه فارغاً حين يكون بعيداً عنه؟

ـ لا.. هناك زوجان كفؤان يعتنيان به.. لكنه أعطاهما إجازة بعد أن حضرا البنغلو وأمنا المؤن لنا.

أنزل الحقائب وأوصلها إلى البنغلو.. ثم سأل:

ـ ماذا تريدين أن نفعل أولاً: نستكشف الجزيرة، نأكل أم نفرغ الحقائب؟

ـ لا أشعر بالجوع، وأعتقد أنه أفضل أن نفرغ الحقائب ثم نستكشف.

ـ عظيم.

حمل الحقائب إلى غرفة النوم ولحقت آشلي به. كانت الغرفة يملأها سرير ضخم مزدوج، عرضه على الأقل ستة أقدام.. وأحست آشلي بنفسها تحمر خجلاً وراندال يبتسم:

ـ لا شك أن سكوت يفكر بالأولويات بشكل صحيح.. أليس كذلك؟

بعد ذلك سارا حول الجزيرة التي لم يزد طولها عن الميلين من جانب إلى آخر، وعلى شكل هلال القمر بشكل غير سوي.. وأشار راندال بيده:

ـ أترين تلك الصخور هناك؟ ستتمكن من صيد السمك من فوقها.. تبدو لي موقعاً جيداً.

اعترضت:

ـ لكنني لا أعرف كيف أصطاد.

ـ سأعلمك إذن.. هل أنت جائعة الآن؟

ـ أجل.. وآمل أن يكون الخدم قد أمنوا مؤنة طعام جيدة.

وهكذا كان فعلاً.. فإضافة إلى البراد، كان هناك ثلاجة مليئة بالطعام وخزانة من المعلبات من جميع الأنواع.

وسألها ممازحاً:

ـ تعرفين الطهو على ما أعتقد؟

تمكنت من مجاراته بمزاجه الممازح: بالطبع لا..

ـ في هذه الحالة سنموت جوعاً، فأنا أيضاً لا أعرف.

ـ كان يجب أن تفكر بهذا قبل أن تختار جزيرة مهجورة. اذهب من هنا بينما أحاول صنع شيء.

ضحك وقبل كتفها قبل أن ينزل ليتفحص المركب.

كانت الوجبة «ستيك» وفطر، طماطم وسلطة خضار متبلة، مع فاكهة الجوافه بعد الطعام. وأكل راندال بشهية لكن آشلي بالكاد لامست الطعام، وتحدث راندال بهدوء عن التسلية التي سيجدانها على الجزيرة.. لكن خفقاناً حاداً بدء يضج في عنق آشلي.. دلالة أكيدة على أن أعصابها وصلت إلى نقطة الصراخ.

ما إن أنهيا الطعام حتى وقفت لتقول:

ـ سأصنع القهوة.. هل نتناولها في غرفة الجلوس؟

وضعت الأطباق المتسخة فوق صينية وحملتها إلى المطبخ.. لسوف يأزف الوقت عما قريب.. ويجب أن تبقى هادئة.. لكن يداها كانتا ترتجفان وهي تحضر القهوة وتحمل الصينية إلى غرفة الجلوس، حيث كان راندال متمدداً دون اكتراث على الصوفا.. صبت آشلي له فنجاناً لكنها أخذت فنجانها إلى النافذة تراقب غروب الشمس.

تقدم راندال ليقف إلى جانبها.. وأجفلت وهو يضع يده على خصرها.. وقال لها:

ـ آشلي..

لكنها قاطعته بسرعة:

ـ لقد تذكرت لتوي.. لقد تركت شيئاً على المركب.. هل أغلقت البوابة؟ أيمكن أن آخذ المفتاح لأحضره؟

ـ ألا ينتظر حتى الصباح؟

ردت بحزم: لا.. بل أريده الآن.

ـ إذن سأحضره بنفسي.. أين هو؟

ـ أرجوك راندال.. أفضل الذهاب بنفسي.. إنه.. نوع من.. المفاجأة.

نظر إليها بشيء من المرح.. ثم أخذ مفاتيح المركب من جيبه ووضعها في يدها. أقفلت أصابعها حول المفاتيح بشدة فدفع يديه على خصرها، وجرها إليه يقبلها بمحبة وتملك، وكأنه يمتلكها فعلاً. تركته يفعل ما يريد.. هذه آخر مرة ستضطر فيها إلى الإذعان إلى مداعباته المقرفة!

ـ عودي إلي بسرعة.. زوجتي.

تركها تذهب فاستدارت مسرعة إلى خارج الغرفة، تقف لحظة فقط لتمسح فمها بظهر يدها.. ما إن أصبحت خارج البنغلو حتى ركضت مقطوعة الأنفاس في الظلام في الممر الموصل إلى المرسى.. بسبب استكشافها للمكان بعد الظهر تمكنت من أن تجد طريقها بسهولة.

كان الأمر سهلاً جداً! لقد أعطاها المفاتيح دون نقاش.. الآن كل ما عليها أن تفعل أن تبحر بالمركب بعيداً عن الجزيرة وتخرج من حياته إلى الأبد! كان من الصعب الركض فوق الرمال الناعمة، فتوقفت لحظة لتخلع حذائها.. أجل.. هكذا أفضل.. كانت النجوم تشع بنور قوي في سماء صافية.. ويمكنها أن تبحر على أساسها دون اللجوء إلى البوصلة.

لم تصدر قدماها العاريتان إلا من الجورب أي صوت وهي تركض فوق الرصيف الخشبي وترمي حبل الرسو قبل أن تقفز بخفة إلى سطح المركب.. بعد ساعات ستكون في تريناكا.. لوحدها! بإمكانها تصور التعابير المصدومة على وجوه الناس الذين سيرونها أولاً.. الشائعات المجنونة والفضيحة التي ستتناقلها الألسن والتي ستنتشر كالنار في الهشيم في الجزيرة كلها.. في البداية،

وهي تخطط لما ستفعل، فكرت بعدة قصص مختلفة تستطيع روايتها لشرح عودتها السريعة من شهر العسل.. لكن فيما بعد، خطر ببالها أنها ليست مضطرة لتقول شيء.. لو أنها تظاهرت أنها مصابة بصدمة عميقة ورفضت الكلام، فسيملأ كل شخص الفراغ على هواه من مخيلته النشيطة.. خاصة بعد أن ترفض رؤيته بتاتاً!

برضى عميق تخيلت فكرة الإذلال الذي سيشعر به حين يضطرون إلى إرسال مركب ليعيده.. وكيف أن إنكاره حدوث شيء سيزيد من التكهنات والأقاويل ولسوف يسجل عليه هذا في سجله، كيف يمكن أن تعطى الترقية لرجل أفزع عروسه لتهرب منه ليلة الزفاف؟ لسوف تمثل دور المرعوبة بطريقة جيدة جداً!

دخلت غرفة القيادة، ووضعت المفتاح في آلة التشغيل وضغطت عليه وقلبها يخفق اهتياجاً وبجنون.. لكن المحرك لم يشتغل.. ضغطت آلة التشغيل مجدداً لكن المحرك اللعين لم يشتغل.. ربما هو بحاجة إلى المزيد من الوقود.. شدت شريط التخنيق وحاولت مجدداً.. لا شيء. أوه.. لا!.. يا إلهي أرجوك، لا تدع المحرك يتعطل الآن.. ليس الآن.. كل شيء يعتمد على ابتعادها هذه الليلة!

عضت شفتها وحاولت ثالثة.. ثم فكرت بهدوء ووضوح.. المحرك لم يعمل أبداً، بدا وكأنه ميت تماماً.. أمن الممكن أن تكون البطاريات هي السبب؟ بسرعة فتحت غطاء المحرك، لكن الظلام كان شديداً ولم تتمكن من رؤية شيء.. والنور في غرفة القيادة لم يشتعل حين أدارته.. بالتأكيد لم يتعطل النظام الكهربائي! لكن راندال يحتفظ بمشعل يدوي في غرفة القيادة فسارعت لإيجاده ووجهته إلى البطاريات.. بدت لها على ما يرام.. لكن ربما الرباطات ليست مشدودة، أخذت مفتاحاً إنكليزياً من علبة المعدات وركعت على الأرض ورأسها في فجوة المحرك لتشد رباط البطاريات قدر استطاعتها.

تفصد العرق على جبينها فمسحته بيدها، ثم قفزت وكلها أمل لتشغل المحرك مرة أخرى.. لا شيء! ميت كما كان من قبل.. أوه.. لا! رمت

المشعل من يدها يائسة وأمسكت بالمقود.. وتحرك المركب مع صعود شخص ما إليه، فاستدارت آشلي صارخة رعباً لظهور راندال في الباب.

ـ لا بأس عليك.. هذا أنا فقط.

كان في صوته رنة ضحك.. لكن تعابير وجهه تغيرت إلى التسلية المرحة وهو يرى غطاء المحرك المفتوح.

ـ ما هذا بحق الله..

ثم لاحظ المفاتيح في آلة تشغيل المحرك.

ـ ماذا تحاولين أن تفعلي؟

وتقدم نحوها.

رفعت المفتاح الإنكليزي الذي كانت تمسكه وتراجعت إلى الزاوية.

ـ لا.. لا تلمسني!

توقف مرتاعاً:

ـ آشلي ما الأمر؟ ما بك؟ أكنت تحاولين تشغيل محرك المركب؟ ألهذا حيال الرسو منفلتة؟ أكنت سترحلين دون كلمة؟ حسن جداً آشلي.. دعيني أعرف.. إلى أين ظننت نفسك ذاهبة؟

نظرت إليه مخدرة الأحاسيس.. يجب أن يكون لديها الوقت لتفكر.. وقت لمحاولة إنقاذ شيء ما من الأحداث التي انقلبت رأساً على عقب.

ـ ردي عليّ آشلي! إلى أين ستذهبين؟

ـ إلى.. إلى تريناكا.

حدق بها دون كلام.. ثم تحرك نحوها، لكنها رفعت المفتاح في وجهه تصيح مذعورة:

ـ لا تقترب مني..

ارتفعت قهقهة هستيرية إلى حنجرتها، فانفجرت ضاحكة باكية في الوقت عينه.. لماذا لم يدر محرك المركب؟ لماذا؟

ـ آشلي.. توقفي عن هذا! تمالكي نفسك!

بحركة سريعة انتزع المفتاح من يدها، ثم أمسك بكتفيها ليهزها بقوة.

على الفور، توقفت عن الضحك لكن موجات من الألم العاطفي كانت لا تزال تجتاحها.. رفعت نظرها إليه شاحبة وعيناها مليئتان بالكراهية وقالت بشراسة:

ـ ابعد يديك عني!

فعل ببطء يراقبها بحدة.. ولمعت عيناه بغضب مكبوت:

ـ لماذا كنت تحاولين الهرب مني؟

لعقت شفتيها الجافتين فجأة، لن تستطيع قول الحقيقة له، ليس هنا.. ليس وهي لوحدها معه. كان على وجهه عبوس متجهم، وهي مذعورة مما قد يفعله بها.. أي شكل سيتخذه غضبه لو اكتشف أنها كانت تخدعه طوال الوقت؟.. يجب أن تمثل دوراً.. أن تجعله يظن أي شيء ما عدا الحقيقة.

ـ أنا.. أخشى.. أن أكون قد ارتكبت غلطة شنيعة، ما كان يجب أن أتزوجك أبداً.

ساد صمت قصير مشتت للأعصاب وهما يقفان يواجهان بعضهما في الغرفة الصغيرة.. ثم قال راندال:

ـ لا يمكن أن نناقش هذا هنا.. دعينا نعود إلى البنغلو ولسوف نناقش المسألة ونحن نشرب الشاي.

قالت مذعورة:

ـ لا.. لن أذهب إلى أي مكان معك.. قلت لك إن كل شيء كان غلطة ولا أستطيع إكمال الطريق! يجب أن تدعني أذهب!

قال بشدة:

ـ هل أنت مجنونة؟ حسن جداً.. أعرف أنني استعجلتك.. لكننا الآن زوج وزوجته.. وسنبقى هكذا!

حاول شدها إليه ليحتويها بين ذراعيه.. ولعلمها كيف تتشتت إلى قطع صغيرة حين يلامسها قاومته بشراسة:

ـ لا.. لا تلمسني!

وتحرك المركب تحتهما، ووقعت على طاولة الخرائط تؤلم خاصرتها.

صاحت ألماً، وسرعان ما حملها راندال إلى القمرة ووضعها فوق المقعد الثابت وقال بوحشية وأنفاسه ثقيلة:

ـ والآن أخبريني ماذا يعني كل هذا!

رفعت آشلي وجهاً رمادياً متألماً إليه وحاولت أن تكسب وقتاً تفكر فيه.

ـ راندال.. أنا آسفة.. لكنني لا أستطيع.. لا أستطيع..

جلس إلى جانبها، وأمسك يدها يتلاعب بالخاتم الذهبي الذي وضعه هناك منذ زمن قليل:

ـ آشلي.. هذا ليس مجرد توتر عروس.. لقد كنت متوترة كقطة برية منذ خطوبتنا.. ولهذا تمهلت قليلاً على أمل أن تتغلبي على هذا التوتر.. ربما كان من الأفضل لو أظهرت لك أكثر ما هو الحب.. حبيبتي.. لا بد من وجود سبب لمحاولتك الهرب. كان يجب أن تقولي لي من قبل.. لكن الآن يجب أن تقولي لي.. ألا تدركين هذا؟

همست: أجل.

لكنها كانت تبحث يائسة عن شيء تقوله ويرضيه ويجعله يتركها بسلام.

ـ إذن.. لماذا أنت خائفة هكذا من الرجال؟

اختياره للكلمات أعطاها الفكرة.

ـ حين كنت.. صغيرة.. هناك.. رجل..

سمعت صوت أنفاسه الحادة.. ولم تضطر إلى قول المزيد.

ـ اعتدى عليك رجل؟ أوه.. يا طفلتي المسكينة. لطالما فكرت أن رجلاً آلمك بطريقة ما.. لكنني ظننت هذا حدث مؤخراً.. وليس هذا.. كم كان عمرك؟

ـ خمسة عشر.

وكان هذا صحيحاً بطريقة ما. لقد هاجمها رجل وهي في هذه السن، إنه راندال ذاته.. صحيح لم يهاجمها جسدياً، لكنه انتزع منها الأخ الذي أحبته ودمر لها طفولتها السعيدة.. انتزعها وأمها من منزلهما.. وحطم أمنهما.. ملأتها الفكرة بتصميم حديدي.. لو استطاعت إبقاؤه بعيداً عنها وجعله يشعر بالأسى

عليها، فسيبقى أمامها فرصة الهرب بالمركب وتحقيق خطتها.

أخذ يشتم من بين أسنانه.. ثم رفع يده ليملس شعرها بلطف:

ـ لماذا لم تقولي لي؟

نظرت إلى يديها المضمومتين بشدة في حجرها:

ـ ظننت نفسي قادرة على المضي في الأمر.. لكن حين وصل الأمر إلى الجد.. عرفت.. أنني.. لن أستطيع.

لامس فمه شعرها:

ـ حبيبتي.. لا شيء تخافين منه.. فأنا أحبك.. ولن أؤلمك أبداً!

ارتفع صوتها بشكل هستيري:

ـ لا راندال.. لا أستطيع! أريد العودة إلى تريناكا، لا أستطيع البقاء معك هنا!

شدت يده على يدها لحظة وقال بخشونة:

ـ أنت أكثر توتراً من أن تفكري جيداً.. سنعود إلى البنغلو وستحصلين على ليلة نوم جيدة.. ونتحدث بالأمر في الصباح حين تصبحين أفضل.

ساعدها لتقف ونظرت إلى وجهه:

ـ أنت.. لن..!

قال بصوت متجهم:

ـ ليس قبل أن تكوني أنت مستعدة، ليس قبل أن ترغبي أكثر مني.

إذن لقد كسبت فرصة للتنفس.. كسبت لنفسها بعض الوقت لتفكر بخطة بديلة.. عند نهاية الرصيف الخشبي، استدارت لتنظر إلى المركب:

ـ لماذا لم يشتغل المحرك؟

نظر إليها لحظة:

ـ فيه مفتاح ضد اللصوص يقطع التيار الكهربائي كله.

هكذا إذن.. قفل بسيط لم تعرف بأمره أفسد لها كل خططها الحذرة. الآن هي في الواقع سجينته.

ـ وأين هو المفتاح؟

رد بصوت خشن:

ـ في جيبي.. وسيبقى هناك إلى أن نغادر معاً.

أمسك ذراعها بحزم وقادها نحو المنزل.

* * *

٧ ـ لا تلمسني

بعد ليلة لا راحة فيها، استيقظت آشلي في الصباح التالي في الفراش الكبير وتساءلت بضياع أين هي. ثم عادت الذكرى.. بعد عودتهما من المركب أعدّ راندال لهما كوبين من الحليب وقال لها:

ـ اذهبي إلى النوم صغيرتي.. ولا تقلقي، سوف نصل إلى حل.

ثم قبلها بلطف وذهب لينام في غرفة نوم إضافية، ودخلت آشلي إلى غرفة النوم الرئيسية وإحساس فراغ غريب في داخلها.

نامت إلى وقت متأخر، وفتحت الستائر لتسمح لنور الشمس البراق بالدخول.. بدت لها بركة السباحة باردة هادئة ومغرية.. هكذا ارتدت ثوب السباحة بسرعة وخرجت لتغوص محاولة أن لا تفكر بما قد يأتي به هذا اليوم القادم. كان قعر البركة البيضاوية المستطيلة مزوداً بالمرايا من على الجانبين، واستطاعت آشلي أن ترى نفسها وهي تسبح.. جسمها النحيل البني في البيكيني الليموني اللون، وشعرها الذهبي الطائف حولها وكأنه غمامة.. كان راندال يسبح كذلك لكنه الآن يجلس على كرسي طويل يراقبها إلى أن تعبت وخرجت من الماء. كانت منشفتها ملقية على كرسي إلى جانب كرسيه.. للحظة فكرت بالعودة إلى الداخل لتجفف نفسها في الحمام.. لكنها جمعت شتات نفسها وتقدمت إليه.. فهذه اللحظة يجب أن تواجهها. التقطت المنشفة وجلست على كرسي ولفت المنشفة حول شعرها.

ـ سيكارة؟

ـ أرجوك.

ارتجفت يدها قليلاً وهي تأخذ سيكارة من العلبة الذهبية لكن يده لم تتحرك وهو يشعلها لها.. واستراحت عيناه للحظات على وجهها الأبيض والظلال السوداء حول عينيها.. واشتد ضغط فمه في خط مستقيم لكنه لم يعلق.

وهي تستلقي فوق كرسي النوم وتشد أنفاس سيكارتها، فكرت آشلي بالرغم عنها أنها كطبيبة عليها الإعجاب بقوة إرادته الرائعة.

سألها بعفوية: ما رأيك بالمرايا في القعر وعلى الجانبين؟ فكرة رائعة ألا تظنين هذا؟

ـ بلى.. غير عادية أبداً.

ـ لسكوت ميل لمثل هذه الأشياء.. أحد اهتماماته هو التصميم وما شابه لإضافة لمسات جديدة هنا وهناك، وأفكر أن أطلب منه بعض الأفكار لمنزلنا حين نبدأ ببنائه.

انتظرت أن يستمر في كلامه.. لكنه أنهى سيكارته ووقف:

ـ فلنذهب لنأكل.. أتوقع أن تكوني جائعة.. فأنا جائع.

ـ لا.. سأبقى هنا.. اذهب أنت.

قال ساخراً: تجويع نفسك لن يحسن الموقف آشلي.. أم تنوين أن نأكل كل على حدى؟

وقفت على مضض وانتظرها إلى أن سارت إلى جانبه وأجبرت نفسها على البقاء منعزلة عنه، فهي تعرف أنها لو استسلمت ولو لذرة فسيستغل ضعفها بالكامل.

ـ فكرت أن نتناول الطعام على التراس.. تعالي وساعديني على نقل الطعام من المطبخ.

أجفلها صوته، وعرفت أنه كان يراقبها.. في المطبخ رأت أنه حضر الفطور سلفاً، وهناك إبريق قهوة فوق النار. حملا الطعام إلى الشرفة واكتشفت آشلي أنها في الواقع جائعة جداً.. في الأيام الأخيرة، وبالأمس على الأخص، تعاظم التوتر العصبي إلى درجة أنها لم تأكل سوى القليل.. أنهت شريحة الخبز الثانية وتراجعت إلى الوراء في كرسيها، تشعر بالاسترخاء بينما الشمس تجفف

شعرها المبتل.

ـ أتشعرين أنك أفضل حالاً؟

السؤال عادي وعفوي.. وعرفت أنها لن تستطيع تأخيره أكثر من هذا..

ببطء وضعت فنجان الشاي على الطاولة.. الرواية المزيفة يجب أن تبدأ الآن.

سألها دون أن تتوقع السؤال: حبيبتي.. لو أن واحدة من مريضاتك أتت تقول لك إنها خائفة من مواجهة الحياة الزوجية بسبب شيء حدث لها منذ عشر سنوات.. فبماذا تنصحينها؟

نظرت إليه بسرعة ثم أشاحت بوجهها.. إنه سؤال ماكر.. إنه يأمل أن تتمكن من التغلب على عقدة الاشمئزاز من الرجال لكنه لن يكسب شيئاً..

وقالت: لست أدري.

أمسك يدها قبل أن تستطيع سحبها.

ـ لكنني أعتقد أنك تعرفين.. ماذا ستقولين لها.. آشلي؟

ـ قلت لك لا أعرف! ربما.. أقول لها إن الرجال لا يتشابهون..

ـ تابعي.. وما غير هذا؟

ـ وكيف أعرف؟ سيعتمد هذا على الظروف.

حاولت الوقوف ساخطة.. لكنه لم يترك يدها فاضطرت إلى الجلوس مجدداً.. لا يجب أن تتركه يورطها في أي جدال لأنها تعرف أنها ستخسر.. ولسوف يجعلها تتقبل منطقه.. يجب أن تقف في وجهه.. يجب!

قال: ألن تقولي لها كذلك إنها لا يمكن أن تترك شيئاً مهما كان يقف في وجه سعادتها الحالية؟

ـ ربما.. لست أدري.. وتوقف عن التصرف كعالم نفسي. أرجوك راندال.. لا تتابع هذا.

ـ يجب أن تواجهي الأمر.. يجب أن تتعلمي الثقة بي.

أشاحت بوجهها عنه. ترك يدها أخيراً فأبعدتها بسرعة وبدأت تتلاعب بحافة مفرش الطاولة.

قال بصوت آمر: أنظري إليّ.

ببطء رفعت رأسها وشعرها لا يزال رطباً على جبينها وصدغيها.. سألها:

- هل تصدقين أنني أحبك؟

دخلت نظرة ذعر معذبة إلى عينيها وحاولت النظر بعيداً، وكرر السؤال:

- هل تصدقين آشلي؟

هزت رأسها بالإيجاب.

- إذن.. بالتأكيد تعرفين أنني لن أفعل شيئاً يؤذيك، يجب أن تثقي بي!

عادت للعبث بمفرش الطاولة مجدداً.. ثم قالت: وماذا تشمل الثقة بك.. بالضبط؟

لمعت عيناه قليلاً.

- فكرت أن ننظر إلى هذا كمجرد عطلة عادية إلى فترة.. وليس كشهر عسل.. نستطيع التمتع بوجودنا على الجزيرة لكن دون أي تورط عاطفي.. إلا إذا أردت أنت. أدرك أنني دفعتك دفعاً إلى هذا الزواج قبل أن تكوني فعلاً مستعدة وأننا لم نجتمع كثيراً معاً منذ خطوبتنا.. لكن وجودنا هنا سيعطينا الفرصة لنعرف بعضنا بعضاً ولنتعلم الثقة ببعضنا.

- إذا كنا سنثق ببعضنا، عليك أن تعطيني مفتاح القارب لأعتني به.

- لا.. أنت تميلين إلى الهرب من وضع لا تستطيعين التعامل معه.. ويجب أن تثقي بي لأحتفظ بالمفتاح كذلك.

وقفت فجأة: سأذهب لأتمشى.

- أتحبين أن أجيء معك؟

ردت بحدة: لا.. أنا.. أنا آسفة.. أردت فقط أن أكون لوحدي.

هز رأسه، فاستدارت لتسير نحو الشاطىء.

جلست لفترة طويلة على الرمال قرب بركة صخرية تراقب المخلوقات الصغيرة التي تعيش هناك.. كان رأسها يؤلمها بشكل بغيض.. وأرادت أن تذهب لتخبىء نفسها كتلك السمكة الصغيرة التي تدفن نفسها في الرمال.. إلى متى تستطيع المضي في هذا.. حتى في الظروف التي حددها راندال؟

وهي تفكر في أفضل الطرق لمعالجة الموقف، قررت أن تتظاهر ببعض الجهد

لتلاقيه في منتصف الطريق. إذا أظهرت له العداء كثيراً، قد يفقد أعصابه مهما كان يُظهر انضباطاً الآن.. والسماء وحدها تعرف ما قد يحصل ساعتها! إذا بالغت فقد يأخذ المبادرة بيده.. وقد يجبرها على معاشرته وهي تعرف أنه يريدها.. عرفت هذا في كل مرة عانقها فيها أو لامسها.

عندما ارتجفت ببرد حقيقي، وعت أنها لا ترتدي سوى ثوب السباحة وقميص رقيق فوقه.. لقد مضى على وجودها هنا ساعات وكان هناك صوت موسيقى قادمة من المطبخ حين عادت إلى البنغلو.. لكنها اتجهت رأساً إلى غرفة النوم لتستحم وترتدي ثياباً نظيفة.. فتحت الخزانة ورأت أن ثياب راندال التي علقها بالأمس قد اختفت. بشيء من الارتياح، خلعت ثوب السباحة ووضعت روب حمام بني اللون وذهبت إلى الحمام.

استلقت في المغطس نصف ساعة تنقع نفسها في الماء.. وهي تخرج من الحمام إلى الممر، أطل راندال برأسه من باب المطبخ:

- العشاء بعد نصف ساعة.

ضمت آشلي الروب حولها، تحس بعريها من تحته.. فابتسم وعاد إلى المطبخ.

كان الطعام بخنة خضار مع اللحم قدمت على طاولة مضاءة بالشموع.

قالت: سمعتك تقول إنك لا تعرف الطهو؟

- لقد اتبعت ما هو مذكور في الكتاب وكان الأمر بسيطاً.

- الطعام لذيذ.

- شكراً لك.. ربما لدي مواهب مخبأة في هذا الخصوص.

ردت بحدة: يبدو أن لك مواهب مخبأة في أكثر من اتجاه.. مثل عالم نفس هاوٍ..

عضت شفتها: أنا آسفة.. ما كان يجب أن أقول هذا.

لم يبدُ عليه الغضب:

- لا.. ما كان يجب.. وعقاباً لك ستقومين بغسيل الصحون.

أخذ يجفف الصحون بعد أن تغسلها، وأحست برغبة كي تصرخ.. لن

تستطيع الاستمرار في الادعاء هكذا.. لن تستطيع.. وما إن انتهيا حتى قالت: أنا متعبة جداً.. سأذهب رأساً إلى الفراش.

- قبل أن تذهبي، تعالي إلى غرفة الجلوس.. هناك شيء أريد أن أريك إياه.

على مضض لحقت به إلى حيث وقف وسط الغرفة وأخرج علبة سوداء رفيعة وطويلة من جيب سترته:

- كنت أنوي إعطاءك هذه ليلة أمس.. لكن الأمور لم تحدث كما خططت لها.

والتوى فمه وهو يفتح العلبة.

وجدت آشلي نفسها تحدق كالمنوّمة إلى عقد وسطه قلادة، مزين بالألماس والزمرد. أحست فجأة بجفاف فمها وتراجعت خطوة، وارتفعت عيناها دون وعي لتلتقيا بعينيه، ثم ابتعدتا بسرعة:

- لا أستطيع قبولها.. وتعرف أنني لا أستطيع.

- إنها هدية العرس.

- لا فارق لهذا.. راندال.. أرجوك، تعرف أنني لا أستطيع أن آخذها.

- ولماذا لا.. آشلي؟

- لأن.. لأن..

وصمتت غير قادرة على الرد.

- لأنك تعتقدين أنني أحاول شراءك؟

- أجل.. إذا كان يجب أن تعرف السبب، فهذا هو بالضبط.

- ألا تعرفين أن من حق الزوج شراء الهدايا لزوجته؟ بعض النساء يحبين هذا وأنت زوجتي.. ألست هكذا آشلي؟

ببطء هزت رأسها بالموافقة.

صاح آمراً: قوليها!

- أجـ.. أجل.

- إذن يجب أن تأخذي العقد.

مدت يدها إلى العلبة لكنه قال: سأضعه لك.

وأمسك العقد ينتظر أن تتقدم إليه.

تقدمت مترددة، وأدارت ظهرها ليثبت العقد في مكانه.. وجدت نفسها تنظر إلى مرآة على الجدار ورأت القلادة تبرق على فستانها الأسود.. رفعت عينيها المتسعتين المتوترتين ورأت أن راندال ينظر إلى انعكاس صورتها في المرآة أيضاً وبريق غريب في عينيه الرماديتين القاتمتين، متعمداً وضع يديه على كتفيها، وأحست بهما قويتين كالفولاذ. وبدأت رعدة المشاعر التي أصبحت مألوفة لها تسري في جسدها وفجأة لم تعد تستطيع تحمل قربه منها.

انتزعت نفسها منه وابتعدت.. وشدت بعنف العقد إلى أن انفصلت السلسلة الرقيقة ورمته به بكل قوتها وأصابته في صدره.. لم يحاول التقاطه، وتركه يقع عند قدميه.

صاحت بشراسة: لا تحاول لمسي مرة أخرى! أكره أن تلمسني.. هل تفهم؟ أنا لست زوجتك ولن أكون أبداً!

استدارت لتهرب راكضة إلى غرفة نومها تقفل الباب خلفها.

كانت الساعة تقارب التاسعة صباح اليوم التالي حين استيقظت آشلي وهي تشعر بالتصلّب والتعب. فهي لم تنم كثيراً خلال الليل.

حين ذهبت إلى المطبخ، كان هناك دلائل على أنه تناول فطوره، فصنعت لنفسها قطعة توست محمصة وحملتها إلى الشرفة.. كانت الشمس مرتفعة تشع بقسوة، لا تصدها الغيوم القليلة المعلقة دون حراك في السماء الزرقاء..

سئمت آشلي الصمت حولها وذهبت لتدير الراديو النقال.. لكنها وجدت أنه لايعمل.. ودخل راندال وهي تعبث به.

- يبدو أن بطارياته ميتة.

- أليس هناك غيرها؟

- فتشت المكان ولم أجد.. سنضطر إلى الاكتفاء بالراديو الذي على المركب.. هل هناك شيء خاص تريدين سماعه؟

- لا.. بل أحست بحاجة إلى الاستماع إلى بعض الموسيقى.

جلس قبالتها: هكذا إذن..

أشعل سيكارة وأخذ ينظر إلى ما ورائها. كانت لهجته معها رسمية ومهذبة جداً.. وكأنه يكلم شخصاً لا يعرفه جيداً.. وأنهت آشلي فطورها قبل أن يتكلم مرة أخرى.

- من المفترض أن يكون هناك حطام سفينة قديمة في القسم الشمالي من الجون. فكرت أن أذهب بحثاً هذا الصباح.. هل تحبين المجيء معي؟

عادة، كانت ستقفز لتمسك بالفرصة فهي لم تستكشف حطام سفينة غارقة من قبل.. لكنها قالت باستعجال:

- أعتقد أنني أفضل الجلوس إلى جانب البركة لأقرأ.

- كما تشاءين.

أنهى سيكارته ثم جمع معدات الغطس وذهب إلى الطرف البعيد من الجون.

في الساعة الواحدة.. دخلت إلى المنزل وحضرت لنفسها سلطة وتوست وتركت نصفها في البراد لأجل راندال.. مع حلول الساعة الثانية، لم تعد قادرة على منع فضولها، وبدأت السير على الشاطىء باتجاه الشمال.. كانت ثيابه موضوعة بترتيب في ظل صخرة، لكن لا أثر له. تطلعت فوق المياه المتموجة وأخذت تفتش عن فقاقيع جهاز التنفس التي تدل على موقعه. لكنها لم ترَ شيئاً.

بقلق، نظرت إلى قميصه المطوي وبنطلونه القصير، تتساءل كم مضى عليه وهو تحت الماء. وتذكرت صوت غرانت وهو يحذرها من الغوص لوحدها خوفاً من أي حادث.. مع ذلك تركت راندال يغطس لوحده خوفاً من أن تكون قربه.. ربما علق في الحطام ولم يستطع الصعود مرة أخرى! لو ركضت إلى البنغلو لتمكنت من المجيء بمعداتها للغطس والذهاب وراءه.. لكن المكان بعيد بقرب من ميل. وكانت قد بدأت الركض حين تذكرت أن المركب أكثر قرباً وأن هناك بذلة غطس إضافية على متنه. لكن على الأرجح أن راندال قد أقفل المركب.. وهي لا تجرؤ على المخاطرة والذهاب إليه لتجده مقفلاً. عادت بسرعة إلى ثيابه وبدأت التفتيش عن المفاتيح.. وجعلها الذعر ترتجف وهي

تسرع.

- أنت تضيعين وقتك.. ليست هناك.

استدارت آشلي لترى راندال يسبح على مسافة بعيدة من المكان الذي كانت تبحث عنه فيه.. وأحست بموجة ارتياح بحيث لم تنتبه إلى ما قاله.. لكنه أكمل: هل كنت تظنيني مغفلاً بالفعل لأضع المفاتيح حيث تستطيعين أخذها بسهولة؟ لقد عرفت أنك ستأتين إلى هنا لحظة أدير ظهري.

نظرت إليه مخدرة الإحساس، لم يخطر ببالها أبداً محاولة الهرب بالمركب.

- أنا.. لم أكن..

وتلاشى صوتها أمام نظرته الساخرة.

- لم تكوني.. عم كنت تفتشين إذن؟

- عن المفاتيح، لكن ليس للسبب الذي تعتقده. أردت أن آتي بشيء من هناك.

- وما هو؟

هزت رأسها: لم يعد يهم الآن.

نظر إليها بسخرية وأخذ يخلع خزان الهواء.

سألت: هل وجدت الحطام؟

- أجل.. لا بد أنها هناك منذ مئة وخمسين سنة كما أعتقد، ولا بد أن الإعصار الأخير أبعدها عن مكانها قليلاً.. وهناك أشياء مثيرة للاهتمام فيها.

صمتت آشلي.. تتذكر آخر إعصار جيداً، وربما تذكر هذا أيضاً.. وقال بلطف: سأعيد شحن خزانات الهواء وسنغوص غداً.

عرفت أنه يعطيها فرصة جديدة وقالت:

- ربما من الأفضل أن أغوص معك.. فمن غير الآمن أن تغوص لوحدك.

- الحطام ليس خطيراً طالما تأخذين الحيطة..

جمع أدواته وعادا معاً إلى المنزل، لكن منفصلين.

لازم هذا التصرف الرسمي كأنهما غريبان آشلي بقية اليوم إلى أن ذهبت إلى

غرفتها لتنام.

في الصباح التالي أخذها إلى حيث الحطام، وتمكنت من الاسترخاء وهما يبحثان... وجدا قطعتين نقديتين، لكن آشلي وجدت الحطام القديم كله مثيراً للاكتئاب، وسرها أن تعود إلى دفء الشمس بعد أن لامس راندال ذراعها وأشار لها بالصعود.

على الشاطىء تفحصت ما وجداه بلهفة: هل هي نقود ذهبية؟ أتظنها ثمينة؟

كسر راندال بحذر الغلاف الرملي الذي نما حول القطع النقدية.

ـ يمكن لهذه أن تكون ذهبية، لكن الأخرى فضية. جوناثان والكرز خبير بالنقد القديم.. يمكن أن نأخذها إليه لينظفها لنا.

فجأة تلاشت لهفتها فهي لا تريد التفكير بالعودة إلى تريناكا.. ولا تريد التفكير بالمستقبل أبداً.

لم تعرف أبداً كيف تمكنت من التعايش مع الأيام القليلة التي تلت.. كانت دائماً تخشى أن تتخلى عن حذرها، ولم تستطع أن تتمتع بشيء فعلاه معاً.. لكنها كانت تحس بالقلق وهي لوحدها.. ذات صباح سارا معاً فوق الصخور للوصول إلى فسحة رملية قرب البحر. كان البحر بلون أخضر قرب الأماكن المنخفضة تتخلله ألوان ذهبية وبرتقالية حيث الصخور المرجانية تصل إلى السطح.. اختار راندال صخرة مناسبة وحضر قصبة الصيد وهو يقول: هذا مكان ممتاز لاصطياد السمك الأصفر الذيل.

ـ يبدو لي هذا صعباً.

ـ بل سهل حين تعتادين عليه.. هاك، سأعلمك.

أظهر لها كيفية إمساك القصبة قبل أن يعطيها لها. وأحست بالارتباك عندما أمسكت بها دون أن ترخي الخيط.. بعد عدة محاولات، استسلمت وأعطته القصبة وسرعان ما التقط سمكتين وضعهما في شبكة.

قال مشجعاً: جربي مرة أخرى.

مرة أخرى أمسكت بالقصبة لكن دون نجاح. جاء من خلفها ومد يديه

ليضعهما على يديها.

ـ انظري.. هكذا.

أرجعها إلى الخلف ثم إلى الأمام بسرعة بحيث طارت الصنارة إلى حيث يريدها. وتصلبت آشلي للمسته، لكنه تراجع على الفور وعاد إلى تأديبه وتحفظه مجدداً.. أخيراً تمكنت من اصطياد سمكة، فعلقها راندال جميعاً وحملها إلى الشاطىء حيث جمع الأخشاب الملقاة هناك وأشعل ناراً في حفرة في الرمال.

سألت بفضول: ماذا تفعل؟

ـ سأطهو غداءنا.

نظف السمك ثم لفه بأوراق شجر موز بري.. حين خمدت ألسنة النار، دفن السمك الملفوف بورق الموز في الرماد الساخن، وقال: سينضج سريعاً.

أكلا السمك بأصابعهما، وكسر راندال ثمرة جوز هند فوق صخرة حادة وأعطاها لتشرب الحليب الحلو في داخلها.

أخذت تلعق أصابعها كطفلة: همم.! كان هذا مرحاً!

ـ بإمكاننا الحصول على الكثير من المرح.. لو استرخيت قليلاً آشلي.

على الفور أحست بالتوتر يعود ونظرت بعيداً: سأذهب لأسبح.

ـ من الأفضل أن تنتظري قليلاً.. ستصابين بتشنج في المعدة لو سبحت بعد الأكل رأساً.

وعاد صوته للبرودة والتهذيب مجدداً.

في المساء تعشيا معاً كالعادة، جالسين على طرفي المائدة الطويلة يتبادلان أطراف حديث عادي.. فيما بعد نظفت آشلي الطاولة ورفضت عرض راندال للمساعدة في غسل الصحون. ثم وجدت قصتها التي تحاول قراءتها منذ زمن بعيد واستقرت قرب النافذة.. كان راندال يراجع بعض الخرائط التي وجدها في خزانة، لكنه وقف واختار أسطوانة يضعها في جهاز الستيريو.. ملأ صوت الموسيقى الغرفة ودخل أذنيها وقلبها.. أحست بتوق عميق في داخلها، لكنها لم تعرف إلى ماذا.. فجأة وقفت تنوي الذهاب إلى غرفتها، لكن راندال وقف بدوره يسد لها الطريق.

قال يمد لها ذراعيه: أترغبين في الرقص؟

ـ لا.. بالطبع لا.

تقدمت لتتجاوزه لكنه قال بنعومة: جبانة صغيرة.

ارتفع ذقنها ووقفت تواجهه لحظات قبل أن تسمح له بأن يضع ذراعيه حولها.. توقعت أن تشعر بالتوتر لكنها وجدت دفء ذراعيه مريحاً.. تلاشى الشوق المحبط وهو يقودها ببطء، هل هذا ما كانت تريده؟ هل هذا ما كانت تتوق إليه؟ جعلتها ضخامة الفكرة تجمد فجأة في مكانها.. ثم تنتزع نفسها من بين ذراعيه وتركض لتطفىء جهاز الستيريو وتوقف الموسيقى.

وهو مجفل، تركها راندال تذهب.. واستدارت لتواجهه مكفهرة الوجه ترتجف. استندت إلى جهاز الستيريو لتدعم نفسها، قائلة: لا أستطيع تحمل المزيد من هذا.. هل تسمعني؟ لم أعد أستطيع البقاء هنا لوحدي معك!

ارتفع صوتها تصيح في وجهه وأعصابها تنهار أخيراً تحت الضغط الذي لا يحتمل.

ـ آشلي، لأجل السماء.. اهدأي.. أنا لست غولاً على وشك الهجوم عليك.. لو أعطيت المسألة بعض الوقت لتمكنا..

ـ لا! يجب أن تعيدني إلى تريناكا! ألا ترى أنني لا أستطيع البقاء مسجونة معك أكثر من هذا؟ هذا يشابه كابوساً مستمراً ومستمراً..

ودفنت وجهها بين يديها ترتجف لحدة المشاعر. تفحصها بشدة وفمه مشدود:

ـ أتدركين أننا لو عدنا بسرعة لثار الكثير من الأقاويل؟ ولن تكون أقاويل لطيفة آشلي.

ـ لطيفة؟ أتظن أنني أهتم بهذا؟ أنا أريد فقط الابتعاد عن هنا.. وعنك!

احمرت عيناه، وخشيت آشلي أن يمسك بها مجدداً فتراجعت منكمشة.

قال بحدة: حسن جداً.. سنغادر إلى تريناكا في الصباح.

واستدار مبتعداً يتركها واقفة لوحدها.

لكن لم تثر أية أقاويل في تريناكا عن عودتهما المبكرة.. ففي الصباح

التالي سمعا صوت زورق في الخليج الصغير.. وركضت آشلي إلى نافذتها ودهشت لرؤية سفينة المستشفى تقف متلاصقة مع المرسى الخشبي. بسرعة بدأت ترتدي ثيابها، لكنها وجدت أن راندال سبقها وكان يقف فوق الرصيف يتحدث إلى فيليب حين وصلت إلى هناك. ونظر فيليب إليها بتعاسة والابتسامة المرحة المعتادة متلاشية عن وجهه.

ـ أنا آسف حقاً لإفساد عطلتك دكتورة، والدكتور ماك آسف كذلك.

أخذت آشلي تنقل نظرها من فيليب إلى راندال بحيرة، ورأت أن راندال قلق كذلك فسألت بلهفة: ما الأمر؟

أعطاها راندال خطاباً:

ـ إنه من ماك.. واضح أن جرثومة انفلونزا معدية بدأت تضرب الجزر.. ويبدو أنها من نوع مختلف وقد تكون قاتلة لكل من ليس قوياً بما يكفي لمقاومتها. حاول الاتصال بنا عبر الراديو، لكن بالطبع لم يكن الراديو عندنا يعمل.

قرأت آشلي الرسالة المختصرة التي تعتذر على قطع شهر العسل وتسألها العودة بسرعة للمساعدة في العناية بالمرضى الخطيرة حالتهم.

سمعت راندال يقول: من الأفضل أن تغادري على الفور.. من الأسرع لك العودة مع فيليب في القارب البخاري.. سأنظف المكان هنا وأنضم إليك في أسرع وقت ممكن.

نظرت آشلي إليه لكن وجهه كان دون تعابير.. وقالت: أجل.. أجل.. أعتقد أن هذا هو الأفضل.

وساعدها فيليب على الصعود إلى المركب، وتراجع راندال يقول بلهجة عفوية عادية: أراك قريباً.

قالها بعفوية من يقولها لشخص لم يره منذ سنوات ولا يتوقع رؤيته مرة أخرى.

***

٨ ـ سقطت عند قدميه

كانت جرثومة الانفلونزا الوافدة قد انتشرت ليس في تريناكا فحسب بل في بعض الجزر النائية. . وكان ماك يحاول مع فريق عمله الطبي يائساً أن يحصرها في هذه المنطقة. . كان الفيروس من النوع الآسيوي وهو قاتل خطير للهنود الحمر سكان الجزر الأصليين، الذين لا مناعة لهم مثل السكان الأوروبيين. . وعيَّ ماك آشلي مسؤولة عن المستشفى بينما جال هو وماكميلان في المنطقة كلها، يعطيان حقن مضادات الأنفلونزا، إلى الضعفاء والكبار في السن ويأتيان بمن هو شديد المرض إلى المستشفى.

أدركت آشلي بارتياح أنها يجب أن تبقى في المستشفى للوقت الحاضر، وطلبت من مارتا التي كانت تساعد في المستشفى أن تخبر راندال بهذا. في أول أمسية، حين استطاعت أن ترتاح قليلاً، وجدت الحقيبة التي أخذتها معها إلى «جاباليا كي» في الغرفة المخصصة لها. . والثياب موضبة بترتيب شديد داخلها. . تركت أصابعها تمر فوق الثياب لحظات ثم أخرجت ثوب نومها. . لا وقت الآن للتفكير. . هناك الكثير من العمل.

لأيام لم تر آشلي راندال، بل كلمته عبر الهاتف في مكتبه الرسمي تطلب منه مؤناً طبية ضرورية. . كما طلبت تجهيز عنبر مؤقت بالأسرة للأعداد المتزايدة من المرضى. . وتنظيم الجنازات لمن مات من الفقراء ومن لا أهل له. . كل شيء طلبته وأكثر مما طلبت، فعله لها بكفاءة خارقة في محاولة منه لتخفيف العبء عن الأطباء الثلاثة.

كان الوباء ما زال ينتشر، لكن يبدو أنهم كسروا حدته. . وجاء راندال بعد

أسبوع إلى المستشفى. . كان قد زارها من قبل، لكن لحسن حظها كانت آشلي دائماً مشغولة مع المرضى ولم تره. .

لكنها هذه المرة كانت تقف في مكان مرئي مع آرينا تحاول التفتيش عن مكان لوضع حالتين جديدتين، وكانت تقول:

ـ من الأفضل وضعهما في الغرفة التي أستخدمها. . أستطيع النوم على الأريكة في المكتب.

قال راندال وهو يقترب منها: لا أظن هذه فكرة جيدة أبداً.

استدارت آشلي على مضض لتواجهه، واشتد ضغطه على فمه حين رأى عينيها الشديدتي السواد من التعب. . وأكمل:

ـ هذا ما كنت أفكر به. . أنت لا تنامين ولا تأكلين بشكل لائق. . آرينا، سآخذ زوجتي لتأكل، أيمكنك تدبير الأمور لساعة أو يزيد؟

ـ راندال. . لا أستطيع ترك المكان! ألا تدرك هذا. .

ـ إذا لم تبتعدي لفترة، سوف تنهارين. . حسناً آرينا؟

ابتسمت الفتاة: بالتأكيد نستطيع تدبير الأمور. . اترك لنا رقم هاتف للحالات الطارئة.

وجدت آشلي نفسها تخلع معطفها الأبيض وتنزل لتصعد في السيارة. . وقادها راندال إلى مطعم هادىء حيث وجد لهما طاولة في الحال. . وأحضر لهما الساقي تشكيلة من الأطعمة والمعجنات، أكلت آشلي منها بنهم. . ولم يحاول راندال التكلم معها بل تركها تأكل حتى الشبع.

أخيراً قالت: شكراً لك. . لم أكن أدرك كم كنت بحاجة إلى هذا.

ـ الأطباء متشابهون. . لا يعتنون بأنفسهم كما يجب.

ـ والآن يجب أن أعود. .

ـ سنتمشى إلى الميناء أولاً. . سيفيدك بعض الهواء النقي.

احتجت آشلي لكنه لم يصغ إليها. . وأمسك مرفقها يقودها إلى الشارع الموصل إلى رصيف الميناء. . عبث نسيم خفيف بشعرها وانتبهت أنه مربوط إلى الخلف باستعجال وأنها لا تزال ترتدي في قدميها الحذاء المطاطي المسطح الذي

يجعل راندال يبدو أطول منها بكثير.

قالت تحاول وضع شعرها في مكانه: لا بد أنني أبدو مشعثة.

ابتسم: لا بد أن وجبة الطعام أفادتك، إذا كنت قد بدأت تهتمين بمظهرك!

استند إلى الجدار وأشعل سيكارة لكل منهما وأعطاها لها.. كانت آشلي قد قرأت أن هذه الإيماءة هي كالقبلة.. لكنها لم تكن هكذا قطعاً.

قال:

ـ قال لي ماك إنه يأمل بنهاية الوباء سريعاً.

ـ أجل.. فالأسوأ قد انقضى.. صحيح أن لدينا الكثير من المرضى ويأتي إلينا المزيد، لكن عدد من يقاوم الفيروس أخذ يزداد.

ـ متى تعتقدين أنك قادرة على العودة إلى البيت؟

ـ إلى البيت؟

للحظات لم تفهم قصده.

ـ أجل.. البيت! إلى بيتي.. البيت الذي ننوي العيش فيه إلى أن نبني البيت الجديد فوق التلة.. ألا تذكرين؟

ـ أنا.. أنا.. لست أدري.. لم تتح لي فرصة التفكير بهذا.

ـ إذن فكري بالأمر! هناك أشياء يجب أن نسويها بيننا.. هلا فعلت هذا؟

أطرقت رأسها دون كلمة.. وقادها إلى السيارة ثم أعادها إلى المستشفى قائلاً:

ـ تأكدي من أن تنالي ما يكفي من الراحة.

ـ أجل.. شكراً على وجبة الطعام.

بالتدريج أخذ عدد المرضى يخف.. كان الجميع متعباً، وساعد قرار راندال بوقف التنقل بين الجزر في حصر المرض في منطقة واحدة.

أفاد الخروج مع راندال آشلي لوقت قصير فقط، فقد عادت إلى الطعام السريع، وتخلت عن غرفتها للمرضى. لا تأخذ سوى غفوات قصيرة غالباً ما تقطع بسبب مريض.. خلال بعد ظهر يوم طويل، كافحت بقوة للحفاظ على

حياة امرأة جيء بها إلى المستشفى ولم تتمكن آشلي من إنقاذها.. وحضرت نفسها لإخبار أهل المرأة المنتظرين أن تجترح معجزة.

عندما نظرت إليهم، أحست بجفاف حلقها.. كم تكره لحظات كهذه.. لكن يجب مواجهتها:

ـ أنا آسفة.. لم يكن هناك ما أستطيع أن أفعله.

بدأت النساء بالبكاء.. لكن زوج المتوفاة وقف ينظر إلى آشلي بكراهية لأنها لم تكن ممن يجترحون المعجزات.. ووجدت أنها لن تستطيع تحمل نظراته فاستدارت لتخرج إلى حديقة المستشفى لتتنشق بعض الهواء النقي المنعش.. جرجرت قدميها بتعب فتعثرت بعتبة ووقعت لتجرح ركبتيها.

خرجت منها صيحة ألم.. وحاولت متعبة أن تعود للوقوف، لكنها أحست بذراعين قويتين ترفعانها.. وأحست بالقوة المنبعثة من جسم راندال.. ولم تعد تريد أن تبتعد عنه.. بل أرادته أن يضمها بين ذراعيه ويهدهدها كطفلة.. لكن هذا لن يفيد، إنه عدوها ويجب أن تحاربه حتى النهاية. بدأت تقاوم لكنه شدها إليه أكثر وقال:

ـ اهدأي يا صغيرتي.. ألا تعرفين متى تُهزمين؟

سمعته شبه واعية يتكلم مع شخص ما في الهاتف.. ثم رفعها عن الأريكة التي وضعها عليها وأخذها إلى سيارته وقاد في الشوارع المظلمة، ولم يتوقف سوى عند منزله. حملها إلى الداخل، ثم على السلم إلى غرفة النوم. كان رأس آشلي يدور كمن يسبح في لجة عميقة إرهاقاً وتعباً وألماً من ركبتيها. لكنها كانت تعرف أين هي، وبدأت تقاومه بجدية محاولة الهرب منه والخروج من الباب.. فأمسك معصميها بسهولة وأوقفها أسيرة.. ونظر إليها وحرارة مفاجئة في عينيه فتصلبت آشلي.

ثم سمعت صوتاً بالباب، فاستدار ووجهه يخلو من أية تعابير:

ـ ها هي، مارتا.. لا تزال تقاوم للعودة إلى المستشفى. ضعيها في الفراش، يجب أن أتصل بماكميلان ليحل مكانها بينما ترتاح.

دخلت مارتا وأخذت آشلي منه.. ووجدت آشلي نفسها تخلع ثيابها وتُنظف

ركبتيها المجروحتين. ثم توضع في سرير مزدوج، حتى ومارتا تملس الأغطية فوقها، غطت في نوم عميق مرهق.

حين استيقظت أخيراً، وجدت أنها نامت على مدار الساعة.. وأحست بذنب كبير وأرادت أن تعود إلى المستشفى على الفور، لكن مارتا رفضت السماح لها.

ـ سيسلخ راندال جلدي وأنا حية لو تركتك تضعين قدمك على الأرض.. ترك لي تعليمات صارمة بأن تبقي في السرير طوال اليوم وأن لا تعودي إلى المستشفى حتى الغد.. يا فتاتي المسكينة، لقد أجهدت نفسك حتى الانهيار في الأسبوعين المنصرمين.

ـ لكنك كنت تعملين هناك أيضاً مارتا.

ـ أجل.. لكنني لم أكن متزوجة حديثاً.. وكنت أعود إلى البيت كل ليلة.. من العجيب أنك صمدت إلى هذه المدة. والآن عودي إلى الاستلقاء وسأرسل لك تالينا مع بعض الغداء وتأكدي من أن تأكليه كله.. سأتفقدك بعد الظهر.

قالت بخضوع: أجل مارتا.

أخذت المرأة ترتب لها الوسائد ثم عانقتها بسرعة:

ـ يا فتاتي المسكينة! كانت هذه بداية سيئة للحياة الزوجية، لكن يجب أن تجتمعا معاً عما قريب.

كانت مارتا تريد أن تكون كلماتها مبعثاً للارتياح.. لكن آشلي أدركت أنه سرعان ما لا يعود لديها عذر للبقاء في المستشفى.. لكن لحسن الحظ لا زالت المستشفى بحاجة إليها في الوقت الحاضر.. هكذا، لم تكن مستعدة أبداً لما أعلنه راندال حين عاد ذلك المساء إلى المنزل.

كانت قد وجدت أن تالينا التي تعمل لراندال في منزله قد وزعت الملابس التي لم تأخذها في رحلة شهر العسل في أدراج وخزائن مختلفة.. هكذا تمكنت من غسل شعرها وارتداء فستان.. من المريح الإحساس بالأنوثة مرة أخرى وأن تتمكن من الجلوس في الحديقة لترتاح قبل العشاء، بعد أكثر من أسبوعي سجن

في زحام المستشفى.

جاء راندال لينضم إليها على المقعد المزدوج وسأل: كيف تشعرين؟

ـ أفضل بكثير.. شكراً لك.. سأكون مستعدة للعودة إلى المستشفى بعد العشاء.

أخذ نفساً من سيكارته: كنت أتحدث إلى ماك عن هذا.. ورتبنا أمر استلام ماكميلان المستشفى عنك ليلاً لتعودي إلى المنزل وترتاحي قليلاً.

لمعت عينا آشلي غضباً: حسناً.. يمكنك ترتيب ما تشاء.. لكن، إلى أن تنتهي الأزمة، سأتابع العيش في المستشفى!

ـ الوباء يرحل تدريجياً.. وسيكون لماك وماكميلان الآن وقت أطول في ترييناكا.. ومن المنطقي أن يحملا عنك بعضاً من العبء.

ـ لكن ماكميلان سيعمل هكذا ليل نهار، وإذا فعل سأفعل أنا كذلك.. ولا أريد أية أفضليات لأنني امرأة.

ـ لا تكوني غبية.. لا تملكين القوة مثل الرجل. لقد دفعت بنفسك إلى ما هو أبعد من نقطة الانهيار، هذا إذا لم نذكر أنك كنت أصلاً مرهقة عصبياً قبل أن تتركي «جاباليا كي» ولقد قلت لماك إنك ستأتين إلى المنزل ليلاً.. وهذا أمر نهائي!

وقفت بحدة تواجهه: هكذا إذن.. لقد قلت لماك! وسأنال معاملة مميزة ليس لأنني امرأة بل لأنني متزوجة منك! وبما أنك الموظف الأعلى مرتبة هنا، فأوامرك يجب أن تطاع.. لكن هذا لا يسري عليّ وسأتابع العيش في المستشفى!

سارت متجهة إلى المنزل، لكن وهي تمر به أمسك معصمها بأصابع كالفولاذ:

ـ لماذا لا تعترفين بالسبب الحقيقي لرغبتك في البقاء في المستشفى آشلي؟ لماذا لا تعترفين أنك تخافين العيش معي.. خائفة من أن تتوقفي عن محاربتي، ومن ترك قلبك يتولى القيادة مكان رأسك! لأجل الله.. اكبري! أنت امرأة الآن ولم تعودي طفلة في الخامسة عشرة!

وصمت لكنها لم ترد بشيء.. فترك معصمها ساخطاً:

- كان يجب أن تعرفي أن لا داعي للخوف مني. أنا لست من النوع الذي يفرض نفسه على نساء غير راغبات.. حتى ولو كانت الأنثى تلك زوجته! لكن لا تختبري صبري كثيراً.. لأنني لحم ودم مثلي مثل أي رجل آخر.. أنت متعبة كثيراً الآن.. لكن، عاجلاً أم آجلاً، يجب أن تواجهي واقع أننا متزوجين، وأن علينا أن نعيش معاً.. ولنفعل هذا.. يجب أن تثقي بي.. بشكل كامل!

لحسن الحظ جاء تالبوت زوج تالينا ليخبرهما أن العشاء جاهز فاستدارت لتعود بسرعة إلى المنزل.. خلال وجبة الطعام، أخبرها راندال بكل ما جرى على الجزيرة حتى الساعة. لكنها لم تكن تصغي كثيراً، وردت على أسئلته باختصار بحيث أنه أخيراً لاذ بالصمت.. فور انتهاء الوجبة اعتذرت بحجة التعب فرافقها إلى باب غرفتها قائلاً:

- سأوصلك إلى المستشفى في الصباح وأعود بك حوالى السادسة مساء.

فتحت فمها لتحتج ثم صمتت تعرف أن لا جدوى من احتجاجها.

وهي تستدير لتدخل قال لها: ولا تزعجي نفسك بإقفال بابك ليلاً.. لم يعد هناك قراصنة في تريناكا.

بدأت حياتهما تسير في نظام محدد. كان راندال يقلّها إلى المستشفى في الصباح ويأتي بها في المساء، ما عدا ليلتين في الأسبوع كانت تعمل فيهما إلى وقت متأخر كي يرتاح ماكميلان.. لم يقل لها ماكميلان أين كان يذهب وقت فراغه وهي لم تسأله.. لكنها افترضت أنه يقابل كاتلين وأقلقها هذا.. فهي معجبة بزميلها وخائفة من أن تفضح تلك العلاقة وتتسبب بفضيحة.

على عكس علاقتها براندال.. كلاهما كان بارداً مهذباً مع الآخر عند العشاء، ثم يدخل راندال إلى مكتبته للعمل.. وتذهب آشلي إلى غرفتها.

بدا وكأن جداراً مرتفعاً لا يمكن تجاوزه يتصاعد بينهما ويزداد ارتفاعاً مع كل يوم يمر.. لكن راندال لم يكن من النوع الذي يترك مثل هذا الموقف يستمر إلى الأبد.. وتعرف هذا. في أحد الأيام سوف يحطم الجدار شاءت أم أبت.. لذا يجب أن تفكر بطريقة لتدميره قبل حلول ذلك اليوم.

حين انتهى الوباء، تلقى راندال وآشلي دعوة لحضور حفل استقبال في مقر

الحاكم بسبب وجود وفد زائر.. وراندال هو الرسمي الأول ومن المتوقع أن يحضر، لذا كانت الدعوة تشمل آشلي.

لكنها قالت وهي تقرأها:

- إنهم لا يريدون وجودي حقاً.. ولا أحد سيمانع لو ذهبت لوحدك.

وبكلمة «لا أحد» كانت تعني السير موريس واللايدي سمبسون اللذان لم ترهما منذ يوم الزفاف.

قال راندال: بالعكس.. لقد دعينا للحضور لأننا زوجين، ولسوف نذهب على هذا الأساس.. هل تفهمينني آشلي؟ سوف نذهب كرجل وامرأة متزوجين حديثاً، وسعيدين، وليس كشخصين لا يكادان يطيقان رؤية بعضهما.. هل هذا واضح؟

- أوه.. واضح جداً.. ما كان بالإمكان أن تشرح بشكل أكثر وضوحاً أن مستقبلك العملي يأتي بالدرجة الأولى.. قد يكون علينا أن نعيش كذبة، لكن هذا لا يهم طالما راندال هولمان العظيم سيصل إلى القمة!

ابتعدت عنه بمرارة.. لكن كلماته أوقفتها مجمدة.

- لن تستطيعي الهرب إلى الأبد آشلي.. لقد ذكرت للسير موريس أنني سآخذ عطلة بعد وقت قصير للتعويض عن شهر العسل المقطوع.. وهذه المرة سيكون شهر عسل حقيقي!

لم تستطع آشلي أن ترد.. فأكملت سيرها إلى غرفتها ورمت نفسها فوق السرير.. يجب أن تفعل شيئاً في وقت قريب.. من المستحيل الآن خلق فضيحة كالتي كانت ستتسببها في هربها منه.. ولم تتمكن من التفكير بأي شيء آخر. ببطء نظرت إلى الدعوة التي لا زالت في يدها.. وخطرت ببالها فكرة.. لنفترض أنها اغتنمت فرصة حفل الاستقبال لتقول للايدي سمبسون إن زواجهما ناقص.. وإنه كان غلطة؟ بريتانس سمبسون لم تكن تريدها أصلاً أن تتزوج من راندال. ولو توسلت إليها كامرأة..؟ لو طلبت منها أن تساعدها في طلب إبطال الزواج؟ ستكون الفضيحة التي ستثور في الدوائر الحكومية أكثر منعة من طلب الطلاق!

كلما زاد تفكيرها بالمسألة كلما زاد إعجابها بها.. ويجب أن تضع اللوم على راندال.. ولن يكون هذا صعباً. على أي حال، ليس هناك شهود. وابتسمت لنفسها ساخرة. وإذا استخدم راندال قصتها المختلقة كعذر فلسوف تنكرها تماماً.

كانت السهرة قد مضى نصفها قبل أن تتمكن آشلي من الاختلاء باللايدي سمبسون للحظة، وكان راندال يجول بزوجة الموظف الرسمي في الرواق المخصص للوحات.. وخشيت آشلي أن يعود فجأة:

- لايدي سمبسون.. هل أستطيع التحدث إليك.. أرجوك؟

- طبعاً.. هذه أول حفلة استقبال تحضرينها أليس كذلك؟ هل تتمتعين بوقتك؟

- أجل شكراً لك.. لكنني.. أريد التحدث إليك سرّاً.

نظرت إليها المرأة الأكبر سناً، لترى أن عينيها تحولتا إلى بركتين قاتمتين في وجه شاحب.

- حسن جداً، تعالي إلى غرفة جلوسي للحظات.

لحقت آشلي بامتنان بها.. تعيد التفكير في ما حفظته من الأشياء التي يجب أن تقولها.. وما إن أصبحتا داخل غرفة الجلوس والباب مقفل، حتى بدأت:

- لايدي سمبسون.. هذا أمر صعب عليّ أن أقوله.. لكن..

رفعت اللايدي يدها:

- لست مضطرة لقوله.. أعرف بالضبط ما ستطلبين.

أجفلت آشلي: تعـ.. تعرفين؟

- أجل.. فالسير موريس وراندال أخبراني كم كنت تعملين بجهد، وأؤكد لك أن إقناع السير موريس لم يحتج إلى تدخل مني ليعطيكما فرصة تستطيعان فيها إنهاء شهر عسلكما في أسرع وقت.. أعرف كم أحسستما بالتعاسة لاضطراركما للعودة سريعاً.

- لكن.. لكن هذا ليس..

- عزيزتي.. أخجل أن أقول إن أملي خاب حين أصبحتما خطيبين.. فأنا

لم أكن أعتقد أنك المرأة المناسبة له وأملت أن.. لكن هذا لا يهم! ما أردت قوله لك آشلي.. أن عملك المتفاني في المستشفى خلال الوباء وتفضيلك صحة أهل الجزر على زواجك، جعلني أدرك كل المزايا التي رآها فيك راندال قبلي.. لطفك وشجاعتك وإخلاصك ونكرانك للذات..

مدت يدها تمسك بيد آشلي: أتمنى عزيزتي أن نصبح في المستقبل صديقتين مقربتين.. وأريدك أن تعديني أنك إذا احتجت إلى مساعدة أو نصيحة، لا تترددي أبداً في المجيء إليّ، هل تعديني بهذا؟

للحظات حدقت آشلي بها غير قادرة على الكلام. وجمعت شتات نفسها لتقول ما تحضرت لقوله:

- أجل.. في الواقع هناك بعض..

لكنها صمتت لدق حاد على الباب وانفتح فوراً ووقف راندال هناك.

أحست آشلي بنفسها تحمر، وبسرعة أدارت وجهها.. لكنه رأى ولاحظ كيف أنها سحبت يدها بسرعة من يد اللايدي.

كانت عيناه باردتين قاسيتين كالفولاذ.. لكنه ابتسم بسحر وفتنة وهو يضع يديه على كتفيها، يشد بقسوة حتى كادت تئن ألماً.

سأل بصوت كالحرير: ماذا كانت آشلي تقول لك؟ لا يجب أن تدعيها تلهيك عن ضيوفك، بريتانس.

ابتسمت اللايدي لهما، لا ترى أمامها سوى عريساً متملكاً.

- بالعكس.. آشلي لم تتمكن من قول كلمة.. فقد قلت لها إنكما ستتمكنان من السفر بعد وقت قصير.. فهل كان هناك شيء آخر آشلي؟

اشتدت القبضة على كتفيها بشراسة: لا.. لا.. شكراً لك.

- إذن سأنضم إلى الآخرين.. لا تبقي آشلي ساهرة لوقت متأخر راندال.. لا زالت تبدو متعبة.

فتح لها راندال الباب ورفعت آشلي يدها لتدلك كتفيها المتألمتين.

قال بصوت متوحش: لماذا طلبت الاختلاء ببريتانس؟ ماذا تحاولين أن تفعلي بالضبط؟

ـ لا شيء . . أريد العودة إلى المنزل . . الآن أرجوك .

ـ ليس قبل أن تقولي الحقيقة .

ـ لا شيء أقوله . . قالت إنها تأمل أن نكون صديقتين .

ـ لكنك كنت ستخبرينها عنا . . أليس كذلك؟

حاولت آشلي الابتعاد عنه، لكنه أدارها مجدداً لتواجهه . . وكرر سؤاله :

ـ أليس كذلك؟

ـ حسن جداً . . أجل . . إذا كنت تريد أن تعرف . أردتها أن تساعدني في الخلاص منك . . لا أستطيع تحمل المزيد من هذه المهزلة . . أريد إبطالاً للزواج!

نظر إليها بعينين محمرتين كالجمر وشفتاه مشدودتان بخط رفيع، وخشيت فجأة من أن تكون قد تمادت كثيراً لكن تعبير وجهه تحول إلى الاشمئزاز :

ـ أنت أجبن مما كنت أظن . . أنت لم تعطنا الفرصة بعد لمعالجة الأمور . . أنت خائفة من مواجهة أشياء تريدين فقط الهرب منها والادعاء بأن لا شيء حدث . لكنك ستواجهينها، وإذا حاولت فعل شيء كهذا مرة أخرى . .

رأى نظرة التحدي في عينيها . . فغير لهجته ليقول بنعومة :

ـ سأعمل على أن لا يعود لديك شيء تقولينه . . مفهوم؟

نظرت إليه مشتتة الفكر تماماً . إذن ينوي انتزاع هذا السلاح منها كذلك؟ بدأت دموع اليأس تلمع في عينيها فسارعت إلى الابتعاد عنه . . لن تتركه يرى أنه هزمها . . لن تتركه!

قالت آرينا في الصباح التالي وآشلي تمر بمكتبها : مخابرة لك آشلي .

ـ شكراً لك . . سآخذها في المكتب .

رفعت السماعة في المكتب : آلو . . دكتورة پاست تتكلم .

ـ دكتورة پاست؟ ماذا حصل لاسم الزواج؟ أم أنك نسيت؟

وعرفت آشلي صوت كاتلين : لا . . لم أنس . . لكنني أجد مريحاً أكثر استخدام اسمي الأصلي في العمل . . إنه أسهل للعاملين هنا . . ماذا أستطيع أن أفعل لك كاتلين؟

ـ سمعت أنك عدت إلى الحياة الاجتماعية، لذا أتساءل عما إذا كنت

ترغبين في المجيء للسباحة بعد ظهر اليوم . . سنذهب إلى الشاطىء الصغير الذي ذهبنا إليه من قبل .

ـ بعد الظهر؟ أنا متعبة جداً كاتلين . . هل تمانعين أن . .

ـ أرجوك لا ترفضي . . أنا ضجرة إلى درجة أكاد أبكي . وليس هناك من أتكلم معه سوى زوجات الرسميين، وهن دائماً يحاولن إعطائي النصائح، فوافقي أرجوك . على الأقل، أنت لن تحاولي إلقاء العظات عليّ طوال الوقت .

ضحكت آشلي :

ـ يطريني هذا كثيراً . . حسن جداً كاتلين . . سأجيء . . أين سألتقي بك؟

ـ سآخذك من منزلك في الساعة الثانية . . شكراً آشلي . . أراك لاحقاً .

كان البحر بارداً هادئاً ومنعشاً بعد حرارة البلدة . . وسبحت آشلي على ظهرها لفترة طويلة دون أن تبذل جهداً للسباحة . . وأحست أن كاتلين تناديها . . وعلى مضض استدارت لتعود إلى الشاطىء .

قالت كاتلين : خشيت أن تكوني قد نمت .

ـ أحس بنعاس رهيب اليوم . . ولا أعرف لماذا . . لقد عادت المستشفى إلى وضعها العادي الآن .

ـ ألا تعرفين؟ أنا أعرف، إنه شيء تشعر به العروس الجديدة، وبصورة دائمة .

احمر وجه آشلي : أوه!

ضحكت المرأة الأكبر سناً : حسن جداً، لن أمازحك .

تمددت على منشفة الشاطىء وأكملت : من المؤسف أنك قطعت شهر عسلك . . أراهن أن راندال كان غاضباً جداً .

ـ هذا أحد مساوىء أن يكون المرء طبيباً .

ـ لا بأس . . سمعت أن آل سمبسون يحضران فرصة أخرى لكما لمتابعة ما تركتماه . . لكن لن يكون الأمر ذاته .

ـ لا . . لا يمكن أن يكون ذاته . . كيف حال جوناثان؟

ـ بخير . . كما أعتقد . . قال إنه سيمر بعد قليل . هو وغرانت سيذهبان

لرؤية موقع في الغابات . . ويجب أن يمرا من هنا خلال عودتهما .

دهشت آشلي ولكنها لم تظهر شيئاً . . فكاتلين عادة قاسية جداً على جوناثان . . فهل يعني هذا إنها بدأت تمل من ماكميلان؟ هذا ما أملته آشلي .

وصل الرجلان بعد حوالي ساعة ، وعلى الفور ذهبا للسباحة مع كاتلين بينما بقيت آشلي على الشاطىء تشعر بتعب شديد ، ولم تتحرك . سرعان ما خرج غرانت من الماء ليجلس إلى جانبها .

قال : أنا مسرور لرؤيتك تأخذين فرصة راحة . . لا بد أن الوباء أنهكك كثيراً حتى أنك تبدين ضعيفة جداً .

ـ شكراً لك ، ومن الجيد رؤيتك أنت كذلك .

ابتسم ابتسامته الودية وقال بخشونة :

ـ أنا أقول دائماً الأشياء الخاطئة لك ، أليس كذلك؟ أتمنى لو أنني لم أقل شيئاً وإلا لكنت تزوجتك الآن بدلاً من راندال .

نظرت آشلي إليه ، وجعلتها النظرة إلى عينيه الحادتين الآسفتين تعرف أنه لا يقول نكتة! ولحسن الحظ ، تسابق جوناثان وكاتلين فوق الرمال لينضما إليهما ، وفي لحظات كان الجميع يضحك ونسيت آشلي ما قاله غرانت .

طلب جوناثان الطعام ووزعت كاتلين طعام النزهة الذي جاءت به . . بدا الاثنان سعيدين معاً وراقبتهما آشلي بشيء من الحسد . . ثم لاحظت أن غرانت ينظر إليها فشاركت بسرعة في الضحكات .

قال غرانت قبل رحيلهما : على فكرة ، لدي هدية لك . . سآتي في وقت ما لإيصالها .

وابتعد الرجلان تاركين الفتاتين . وهما تحملان آخر أغراضهما إلى السيارة ، صاحت كاتلين صيحة ألم وجلست تنحني لتنظر إلى قدمها اليسرى :

ـ قدمي! لا بد أني دست على قطعة زجاج أو ما شابهها .

انحنت آشلي إلى ركبتيها : دعيني أرى . . لا يبدو لي جرحاً . . ليس هناك دم . أوه ، ها هو . . يبدو أنها شوكة أو شظية خشب ، لكنها دخلت عميقاً كما يبدو .

كانت كاتلين تبحث في الرمل حولها وأخرجت مخلوقاً بحرياً شائكاً أظهرته لآشلي :

ـ لا . . انظري! إنه قنفذ بحر . . توتياء . . شوكه رهيب حين تدوسينه . . لا يمكنك حتى السير على القدم إلا إذا أخرجته فوراً . . ألا يمكنك إخراجه آشلي!

ـ ليس معي شيء هنا . . سأضطر إلى أخذك إلى المستشفى .

ـ أرجوك ، لا أحب أن أعاق الآن ، فأنا خارجة هذه الليلة .

هذه الليلة هي ليلة راحة ماكميلان . . يبدو أن آشلي على خطأ في ظنها أن كاتلين سئمت علاقتها معه . . كان على وشك الدخول إلى المستشفى ساعة وصلتا ومد ذراعه يساعد كاتلين لتدخل غرفة عمليات الطوارىء . . وبدأت كاتلين تتحدث إليه بحيوية على الفور . . وأحست آشلي أنها زائدة عن اللزوم فتركت لماكميلان مهمة نزع الشوك من قدمها . . جلست وراء الطاولة في المكتب تكتب تقاريراً عن بعض الحالات ، وسرعان ما أطلّ ماكميلان برأسه ليقول إنه سيوصل كاتلين إلى منزلها . . فقالت آشلي بلطف :

ـ أتمنى لك أمسية مرحة .

نظر إليها ساخراً لكنه لم يقل شيئاً . . ومرت الأمسية في المستشفى بهدوء ، بحيث قررت آشلي إكمال بعض الأعمال المكتبية والقراءة التي أهملتها خلال فترة مكافحة الوباء . في حوالي العاشرة والنصف جاءت تلميذة تمريض شابة تخبرها أن مريضاً جيء به إلى قسم الطوارىء . وقفت آشلي على الفور لكنها أحست بقدميها بثقل الرصاص تحتها . هزت رأسها بجهد لإيقاظ نفسها ، مدركة أنها كانت تكاد تنام فوق كرسيها . . وتقدمت إلى خزانة الدواء وأخذت قرصين مضادين للألم وابتلعتهما مع كوب ماء ، ثم أسرعت خلف الممرضة .

كان المريض ممدداً فوق أريكة الفحص . . كان رجلاً ضخماً قوي الجسم يرتدي ملابس عمل خشنة ، وأدركت آشلي أنه بحار في أحد مراكب نقل الموز الراسية في الميناء .

ـ حسناً أيتها الممرضة ، سأتفحصه ، لكن أرسلي ممرضاً في الحال . .

وهي تنحني لتفحصه تراجعت إلى الخلف لأنفاسه الكريهة. . كان هناك جرح بليغ في ذراعه واضطرت إلى تمزيق كم قميصه كي تنظف الجرح. أعطته آشلي مخدّراً موضعياً. . لكن يبدو أنه كان أقوى من المخدر فقد أخذ يسأل ماذا تفعل.

ـ لا تحاول الحركة، لديك جرح خطير في ذراعك.

قال الرجل بصوت أجش وقح: وما أنت. . ممرضة؟

ـ لا. . أنا طبيبة. . وأنت في مستشفى ترياناكا.

نظر إليها ساخراً:

ـ طبيبة هه؟ يجب أن أجعل نفسي أصاب بقتال سكاكين دائماً.

ـ قتال سكاكين؟ وهل أصيب الرجل الآخر؟

صاح بها:

ـ وكيف لي أن أعرف بحق الجحيم. . لا بد أنه الآن في قعر الميناء. . ما اسمك؟

بسرعة أنهت آشلي ربط الجرح تتساءل أين ذهب الممرض.

ـ ها قد انتهيت. . يمكنك الذهاب الآن. . وإذا كان الرجل الآخر مصاباً، أرسله إلى هنا للمعالجة.

استدارت لتضع المعدات التي استخدمتها في علبة التعقيم. . لكنها وجدت لرعبها أن البحار جاء من ورائها ووضع ذراعيه حولها. . استدارت بغضب بين ذراعيه. . لكن هذه كانت غلطة، فقد قرب وجهه من وجهها على الفور.

كان رجلاً ضخماً شرساً. . وعرفت آشلي أنها غير كفؤة لمواجهته. . بسرعة ولهفة صاحت تطلب العون. . لكن الطاقم الليلي كان بعيداً عن السمع، لأن أحداً لم يأت لنجدتها. . فزاد صراخها بقوة.

حاول إنشاب أصابعه في روب العمل. . لكن آشلي تمكنت من خدش وجهه. . حاول أن يهزها بغضب، لكن أمسك شخص بذراعه من الخلف وأداره بعيداً عنها. . ودار صراع قصير ثم صاح البحار صيحة رهيبة وخرج يجري في الظلام.

تقدم غرانت إلى حيث تقف آشلي بيضاء شاحبة ترتجف:

ـ آشلي. . هل أنت بخير؟ هل آذاك ذلك الوحش؟

ـ لا. . أنا بخير. . حقاً. . أوه غرانت. . شكراً للسماء لأنك أتيت!

وكان في صوتها ارتجاف واضح، فقال باهتمام:

ـ اجلسي. . تبدين خائفة حتى الموت.

جلب لها غرانت كوب ماء.

ـ هل أنت واثقة أنك على ما يرام آشلي؟ أتودين أن آخذك إلى المنزل؟

ـ لا. . سأكون بخير بعد لحظات. . هل كنت تمر من هنا؟ لا بد أنني صرخت بما يكفي لإيقاظ البلدة كلها.

ـ لا. . في الواقع كنت قادماً إلى هنا. . كنت أوقفت السيارة لتوي حين سمعت صراخك. . فرميت الهدية من يدي وبدأت أركض إليك.

ـ هدية؟

ـ ألا تذكرين هذا الصباح حين قلت لك إن لدي هدية لك؟ فكرت أن أعطيها لك هنا بدلاً من المنزل.

ـ أجل. . أفهم هذا.

لم يقل شيئاً. . لكن كان هناك تفاهم خفي أنها فهمت بأنه لا يريد رؤيتها مع راندال. . وأكملت تسأل:

ـ وما هي؟

ـ شمعدانان من المرجان.

ـ شكراً لك. . كان هذا. . لطفاً منك. .

فجأة بدأت ترتجف بحيث لم تعد قادرة على حمل كوب الماء. . فوقفت لتضعه على الطاولة، لكن ساقاها ارتجفتا حتى كادت تقع. بسرعة أخذ غرانت الكوب من يدها ووضع ذراعه حولها يدعمها.

ـ ما بك؟ هل أنت مريضة؟

ـ أنا متعبة جداً. . فقط. . وأشعر بالحرارة. . حرارة بعد الظهر أثرت علي. .

رفعت نظرها إليه وعيناها غائمتان:

ـ آسفة لتسببي لك بالمتاعب.. غرانت.

اشتدت ذراعه حولها:

ـ وما نفع شاهد العريس الأول إذا لم يوفر كتفاً للعروس تستند إليه؟ آشلي، إذا واجهت المتاعب يوماً.. إذا احتجت إلى صديق.. تذكري فقط..

قاطعه صوت راندال البارد الباتر من خلفه:

ـ آشلي لا تحتاج إلى صديق.. فلديها زوج.

بسرعة، افترقا شاعرين بالذنب واستدارا لينظرا إليه.. فتح غرانت فمه ليحتج، لكن راندال قاطعه قبل أن يتكلم:

ـ آشلي، اذهبي إلى السيارة.. ماكميلان عاد وسأعيدك إلى المنزل.

نظر إليها نظرة سريعة تركتها مخدرة. لكنها حاولت أن تشرح ولو عبثاً:

ـ راندال.. الأمر ليس كما تعتقد.

لكن راندال لم يكن على استعداد أن يستمع، وقال بأمرها بخشونة:

ـ طلبت منك أن تذهبي إلى السيارة.

ترددت قليلاً، لكنها خلعت معطف العمل وسارت ببطء نحو الباب، ونظرت إلى غرانت نظرة توسل صامتة وهي تمر به.

ما جرى بين الرجلين لم تعرف به، لكن راندال انضم إليها بعد دقائق ووجهه قناع غضب وعيناه تحترقان.. وعندما خرجت سيارة غرانت الضخمة، قال بازدراء:

ـ عليه أن يحصل على سيارة أصغر حين يزور زوجة رجل آخر.

لم تجادله آشلي.. فما الفائدة؟ لن يصدق أبداً الحقيقة. كل ما كانت تتوق إليه، هو أن تصل إلى المنزل وتغلق على نفسها في غرفتها.. كان رأسها يؤلمها بشكل غير طبيعي، وجسمها وكأن إبراً من نار تدخله.. أغمضت عينيها قليلاً، فأحست بكل شيء يدور ويسبح حولها.. ففتحتهما بسرعة.. وأحست أن راندال يقود نحو التلال.

سألت: إلى أين تأخذني؟

ـ سنذهب إلى حيث نستطيع أن نتكلم.. سأكون ملعوناً لو قبلت باستمرار هذا الوضع أكثر من هذا!

قالت بيأس:

ـ قلت لك إن الأمر ليس كما بدا لك.. كان هناك بخّار مخمور حاول مهاجمتي لكن غرانت جاء وطرده.

قال بلهجة مليئة بالسخرية المطلقة:

ـ هذا لطف كبير من غرانت.. أعتقد أنه كان يمر بالمكان صدفة.

ـ حسن جداً.. لا.. إنه.. إنه..

وسكتت ببؤس وهي تعلم ماذا سيقول.

ـ كم مرة زارك وأنت لوحدك في المستشفى؟

ـ هذه كانت أول مرة.

ـ والأخيرة! وإلا قسماً بالله، سأجعل غرانت يغادر الجزيرة على أول طائرة!

أوقف السيارة بعنف وأخرج آشلي منها ليجبرها على اللحاق به.. كان القمر بدراً، ولم تلق صعوبة في معرفة أين هما.. لقد جاء بها إلى موقع البيت على جانب التل.. أمسك ذراعها ليستعجلها في الممر الترابي، ولم يأبه بتخفيف سرعته حتى حين تعثرت.. أخيراً وصلا الفسحة وجرها لتستدير وتواجهه.

ـ حسن جداً آشلي.. ما هي فكرتك؟ أن تجعليني أغار.. أن تديري سكيناً آخر في الجرح؟ أم أنك تريدين أن تعرفي ما الذي فاتك بعدم زواجك من غرانت؟ كان سيناسبك، أليس كذلك؟ زوج وديع مطيع لن يطلب منك شيئاً؟ حسناً، أنا لي مطالب منك آشلي.. أنت زوجتي.. ولسوف أريك ماذا يعني هذا بالضبط!

استخدمت آشلي آخر ما لديها من قوة، وتخلصت منه محاولة الهرب، لكنه قفز خلفها وأمسك بها ووجهه أسود من الغضب.

ـ راندال.. أرجوك دعني! أرجوك! أشعر أنني مريضة.. أرجوك خذني إلى البيت.

حاولت مقاومته لكنه أمسكها بسهولة وتحركت إحدى يديه إلى كتفها فعنقها.. حاولت الاحتجاج، لكنها وجدت نفسها غير قادرة على الكلام، وحدقت به برعب متصاعد.. فيما بعد، كل ما استطاعت أن تتذكره هو قبضة أصابعه القاسية على عنقها، وحرارة يديه على بشرتها.. كان هناك حرارة، قوة ملتهبة، وضغط كبير على جسدها، ثم ستارة سوداء تدور بسرعة أمام عينيها.. وانهارت لا تعي بين قدميه.

حين وعت آشلي، وجدت نفسها في الفراش، لكن الغرفة كانت مظلمة والستائر مقفلة لإبعاد الشمس، ولم تعرف أين هي.. أحست بفمها وحلقها كالشوك، وكان جسمها يؤلمها بشكل لا يحتمل.. تأوهت بصوت منخفض.. واقترب شخص ما على الفور وأعطاها جرعة ماء قبل أن يبلل وجهها ويديها ويضع خرقة مبللة على جبينها الملتهب، من هو هذا الشخص؟.. إنها أكثر مرضاً من أن تعرف.. لكن كلما أرادت شيئاً، كانت تجد أحداً يلبيها في الغرفة المظلمة.. أخيراً غرقت في نوم محموم عميق. حين استيقظت مجدداً بعد ساعات عديدة وعت تماماً ما يحيط بها، وأدركت أنها في غرفتها في منزل راندال.

ببطء أدارت رأسها لترى مارتا تجلس في مقعد، تطرز بهدوء.. لا بد أن الحركة جذبت انتباه المرأة المسنة فوضعت طارة التطريز من يدها فوراً وتقدمت إلى آشلي.

ـ لقد استيقظت أخيراً؟ لقد بدأت أظن أن بين يدي «الأميرة النائمة».

كانت لكنتها الاسكتلندية لطيفة، وهي تتلمس جبين آشلي وتتفحص نبضاتها.. ثم قالت برضى:

ـ نعم.. لقد مررت بالأسوأ.. لسوف نسمح لك بمغادرة السرير في وقت قريب.

بدت الحيرة على آشلي: أتعنين أنني كنت مريضة؟

ـ نعم.. كنت مصابة بالأنفلونزا!.. ليس بشكل خطير جداً.. لكن بما يكفي لبقائك في السرير في الأيام الثلاثة الأخيرة.

ـ ثلاثة أيام! أوه مارتا.. أنا آسفة لأنني كنت مصدر إزعاج لك.. يبدو

أنني تعودت أن تخلعي عني ثيابي وتضعيني في السرير.

وابتسمت بضعف لزوجة الطبيب.

ـ أوه.. لم أفعل هذا أنا هذه المرة. هل نسيت أنني كنت في سانكريد أحلّ مكان الممرضة التي أصيبت بالفيروس؟ لقد عدت إلى تريناكا بالأمس فقط.

ـ إذ.. إذن.. من؟

ـ ومن سيكون غير زوجك؟ لقد أصر راندال على تمريضك بنفسه، وكان سيبقى هنا لولا اضطراره للسفر إلى باربادوس هذا الصباح في عمل هام، لكنه رفض السفر إلى أن تأكد أن الخطر زال.

أحست آشلي أنها تكاد تحترق خجلاً لغزو الاحمرار جسمها كله، ولا دخل لهذا بالحمى التي كانت مصابة بها.. وتمكنت من أن تسأل: كم سيغيب؟

ـ بضعة أيام.. وخلال هذه المدة ستكونين قادرة على الوقوف على قدميك مجدداً!

كانت فعلاً أفضل حالاً حين عاد.. ولو أن ماك أصر على أن تبقى مرتاحة لبضعة أيام قبل أن تعود إلى العمل. حين دخل راندال البيت، رمى حقيبته في الردهة وتقدم فوراً ليفتش عنها ويسأل عن حالها. عندما تذكرت ما حدث ليلة مرضها وإسعافه لها، أحست بنفسها تبدأ الاحمرار، فأدارت رأسها تخبيء وجهها.

أساء راندال فهم حركتها فقال ساخراً:

ـ أرى أن غيابي لم يكن له تأثير عليك.. ربما كنت مسرورة لابتعادي عنك؟

أدارت وجهها إليه والعرفان بالجميل الذي أحست به يتلاشى بسرعة:

ـ وماذا يفترض بكلامك أن يعني؟

أشار إلى قصعة تحتوي وروداً صفراء على الطاولة.

ـ من أرسل هذه؟ واحد آخر من معجبيك؟

شدت قبضتيها وردت:

ـ عدة من أصدقائي أرسلوا الزهور.

تطلع إليها وشبح ابتسامة شيطانية على شفتيه:

- يبدو أنك استعدت عافيتك تماماً؟

- أجل.

- عظيم.. لقد حجزت طاولة في ناد ليلي للساعة الثامنة وهذا سيعطيك الكثير من الوقت لتغيري ملابسك.. أليس كذلك؟

نظرت إليه مترددة.. فهما لم يخرجا معاً لوحدهما منذ ما قبل الزواج.

- أجل.. لكن لماذا؟

- وهل نسيتِ؟ إنه عيد ميلادك.

- أوه!

لم تكن تعلم أنه يعرف، فهي لم تذع الخبر، وعدا عن بطاقة من أمها، فإن اليوم كان كغيره تماماً.. لكن راندال يريد أن يأخذها للسهر.. وكانت مشاعرها مشوشة وهي ترتدي فستاناً أبيض يحتضن جسمها، ورفعت شعرها في «شينيون» جعلها تبدو أكثر أناقة مما كانت يوماً.. كانت قد خسرت من وزنها خلال الأسابيع الأخيرة من العمل والتوتر، مما أعطى جسمها مظهراً شديد النحول.

نظر راندال إليها بإعجاب وهو يساعدها على الخروج من السيارة قرب باب النادي الليلي، في بيت مزرعة قديم، حيث الجو معتم على ضوء الشموع، ودافىء وودي.. وتناولا طعاماً ممتازاً ثم رقصا.. كانت آشلي متوترة في البداية.. مستعدة لرفع دفاعاتها في وجهه، لكنه حدثها حديثاً عادياً عن أشياء عادية، وأمسكها وقت الرقص بعيداً عنه.. بالتدريج استرخت إلى درجة أن ألقت رأسها إلى الخلف ناعسة وهما عائدان.

سألها وهما يدخلان غرفة الجلوس:

- أتريدين شراباً ساخناً قبل النوم؟

- أجل.. أرجوك.

تقدمت إلى الستيريو ووضعت أسطوانة، وعاد راندال يحمل كوب كاكاو ساخن وعلبة صغيرة.

- هدية ميلاد، فكرت أن من الأفضل أن أعطيها لك هنا بدلاً من المطعم..

في حال قررت رميها في وجهي.

لكن البسمة كانت في عينيه.

مدت آشلي يدها ببطء لتأخذ الهدية منه، في داخلها وجدت قطعة نقدية ذهبية تحولت إلى خاتم:

- أوه.. إنها القطعة النقدية التي وجدناها في حطام السفينة.

- أجل.. لقد أرسلتها للتنظيف والصقل، ثم صنعوا منها الخاتم وأنا في باربادوس.

لاحقت أطراف قطعة النقد بإصبعها.

- شكراً لك.. إنه جميل جداً.

ثم، دون النظر إليه، أضافت:

- أردت شكرك لعنايتك بي وأنا مريضة.. أنا ممتنة لك كثيراً.

- لا تقولي هذا.. فمن حسن حظي أنني اعتنيت بك. ألن تضعي الخاتم لتجربيه؟

- أجل.. بالطبع..

أخرجت الخاتم الذهبي من العلبة ووضعته في الإصبع الثالث من يدها اليمنى.

- إنه مناسب تماماً.

- لقد طلبت صنعه على قياس خاتم الزواج.. دعيني أنظر إليه.. أجل.. إنه يناسب شكل يدك.

أخذ إصبعه يلامس معصمها ثم ارتفع إلى ساعدها.. فأحست بنفسها ترتجف، وتسارعت دقات قلبها كما تحس دائماً وهو يلامسها.. بحركة سريعة، أخذها بين ذراعيه، وشدها إليه بطريقة لا تخفي أبداً شوقه إليها، ووجدت نفسها ترد عناقه بشوق مماثل، دون أن تهتم لشيء سوى قوة شوقها ودفء ذراعيه القويتين، وتعلقت به أكثر.

قال بصوت منخفض أجش:

ـ آشلي . . أوه حبيبتي . . أريدك كثيراً.

لكن السحر انكسر بينهما.

انتزعت نفسها منه، تشعر بالخجل من مشاعرها، تكرهه لأنه أيقظ تلك المشاعر في نفسها . . ومسحت فمها بظاهر يدها:

ـ كيف تجرؤ على ملامستي؟ أتظن أنني أرغب في عناقك الكريه؟ أنا لا أطيق أن تلمسني . . أكرهك! أكرهك!

ـ تكرهيني؟ لمجرد أنني أريد أن أكون كأي رجل آخر وأحب زوجتي؟

ـ لا . . بل لأنك كاذب ومجرم قاتل و . .

صمتت مرتاعة . . لقد جعلها في غضبها تنسى أنه عدوها وجعل جسمها الخائن يتجاوب معه . . لقد تمادت كثيراً . . بسرعة استدارت لتهرب إلى خارج الغرفة . . وحاولت فتح الباب، لكن راندال وضع يده فوق يدها ليمنعها.

ـ أوه . . لا . . لن تخرجي . . عليك أن تقدمي بعض التفسيرات.

تراجعت عنه إلى أن توقف عند الجدار، ووضعت كلتا يديها عليه مسمّرة تماماً، خائفة من أن تتحرك.

ـ ماذا قصدت بآخر ملاحظة لك؟

ـ لا . . لا شيء.

ـ لا تكذبي عليّ! تركت شيئاً ينزلق من لسانك . . ولسوف أعرف ما هو.

وضع يديه على عنقها يرفع رأسها ويجعلها تنظر إليه:

ـ هل ستخبريني أم أجبرك؟ وأنا قادر على هذا . . وتعرفين.

نظرت آشلي إليه، ترى التصميم في فكه المشدود والبرودة التي لا ترحم في عينيه . . وأدركت أن الحقيقة يجب أن تقال الآن . . لا مزيد من الأكاذيب . . لا مزيد من الادعاء . . إنها الخاسرة ويجب أن تتقبل أي عقاب يختار أن يوقعه بها. لكنها لن تزحف أمامه . . قد يكون هزمها لكنها حاربت حتى النهاية!

ـ حسن جداً . . ستحصل على الحقيقة . . اسمي الحقيقي ليس باست . . إنه ماديسون . . وأنت قتلت أخي بنجامين!

تنفس بحدة كأنه تلقى ضربة، ثم قال بقلق: أوه . . يا إلهي!

ـ لقد قبلت بالعمل في ترينداكا لأنني كنت أعرف أنك هنا، وجئت وأنا أنوي تدميرك بأي طريقة كانت . . في البداية لم أستطع أن أفكر بطريقة لكنك أصررت فيما بعد على الزواج مني . . واتضح الحل أمامي.

ببطء، وكأنما بجهد كبير، قال وصوته خشن في حنجرته:

ـ حين كنا على جزيرة جاباليا كي . . ليلة الزفاف؟ كنت قد خططت للهرب وتركي هناك؟

هزت رأسها إيجاباً غير قادرة على الكلام.

ـ والقصة التي أخبرتني بها فيما بعد؟ كانت كذباً؟ كذبة لتغطي بها نفسك لأنك لم تستطيعي الهرب . . أليس كذلك؟

حاولت أن تنظر إليه لكنها لم تكن قادرة على تحمل الألم الأسود العميق في عينيه . . غير قادرة على تحمل عذاب الخوف في داخلها . . لكنه دفع برأسها إلى فوق مجدداً وأسر وجهها بيديه:

ـ أجيبي آشلي . . أجيبيني!

ـ أجل.

كانت كلمة صغيرة . . لكنها تعني الكثير.

ـ أيتها السافلة! أيتها الجميلة الصغيرة السافلة!

تركها ببطء رهيب ونظرة ألم وغضب على وجهه . . أغمضت عينيها أمام العذاب الذي تسببت به . . وعرفت أنها يجب أن تكون مسرورة، يجب أن تتمتع بإيلامه . . لكنها لم تجد أية سعادة فيما كانت تفعله.

حين فتحت عينيها أخيراً، كان راندال يقف وظهره إليها، وكتفاه محنيتان . . يداه تمسكان بظهر مقعد بقوة جعلت مفاصل أصابعه تصبح بيضاء ووجهه شاحب أبيض، لكن سيطرته كاملة على مشاعره.

أدار المقعد وجلس عليه في مواجهتها . . وبصوت قاس مرير، قال لها:

ـ لقد وقعت في الفخ بكل تأكيد وتصرفت كما يحلو لك، أليس كذلك؟ الأبله المسكين الذي وقع في حب فتاة مستعدة للكذب، الاحتيال، الغش، والحنث بالقسم . . وتفعل أي شيء لتدميري . . لا عجب أنني كنت أتسبب

بمثل ردة الفعل تلك فيك.. لا بد أنك ضحكت حين قلت لك إنني أحبك!

بدأت آشلي ترتجف دون سيطرة على نفسها:

ـ لا.. لم أضحك.. لكنني كنت مسرورة لأن الأمر كان سينتهي قريباً.. لأنني أكرهك! لقد كرهتك طوال سنوات الحزن والتعاسة التي سببتها لأمي! ولقد وعدتها بأن أجعلك تدفع ثمن ما فعلت.. وعدتها بالانتقام. أخي ميت وأنت حي وناجح.. كنت على ما يرام، تصنع مركزاً لنفسك، بينما الاسم الوحيد الذي حصل عليه أخي كان على بلاطة قبره!

وصمتت غير قادرة على الاستمرار، وأخذت أنفاسها تخرج بشهقات كبيرة وقلبها يخفق بجنون. وقف راندال وتقدم نحوها.. فأجفلت متراجعة عنه تضغط نفسها على الجدار:

ـ لا تلمسني! أكره أن تلمسني!

اشتدت عضلة في فكه لكنه كان مسيطراً على نفسه سيطرة حديدية، وقال بلهفة:

ـ يجب أن تصغي إليّ.. كنت في الخامسة عشرة من عمرك يوم قتل أخاك.. ولا يمكن أن تعرفي الوقائع الصحيحة.. أقسم لك أنني لم أقتله!

قالت مستهزئة:

ـ أوه لا.. لم تفعل هذا بيديك ربما.. لكنك أنت من أوصلته إلى الحالة الرهيبة التي تسببت في تحطيم سيارته واحتراقه فيها حتى الموت!

ـ لقد جاء إلى منزل أمي في محاولة لجعل شقيقتي الصغيرة تهرب معه.. كان يقابلها سراً لأنه كان يعرف أننا لن نوافق.. لكنني اكتشفت الأمر وأقنعت شقيقتي أنه لا يريدها إلا لأن والدنا ترك لها مبلغاً كبيراً من المال سوف ترثه حين تتزوج.. هكذا رفضت الذهاب معه، فانقلب أخوك إلى العنف والشر وحاول خطفها بالقوة.. لحسن الحظ سمعت صراخها طلباً للنجدة، وحصل مني على ما يستحق.. ولأن شخصيته ضعيفة خرج غاضباً ليقود بسرعة ودون وعي بحيث فقد السيطرة عليها.

ـ كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ على قول هذه الأمور البغيضة عن أخي؟ كان

يحب أختك وكانت تحبه.. لقد عاد ذلك المساء إلى المنزل وقال إنك أجبرتهما على الانفصال، وإنك ضربته وجررت جيليان جراً إلى المنزل.. كان محطم القلب تماماً! لم يحب أحداً قبل أختك، وكان يشعر بالبؤس لأنكم ستبعدونها عنه..

أخذت آشلي تصيح والدموع تتدفق دون وعي على خديها.

ـ آشلي.. هذا ليس صحيحاً! شقيقك كان نذلاً.. كان قد تسبب بحمل أكثر من فتاة في البلدة، ودخل في متاعب مع الشرطة.. ولم يحتفظ بعمل لأكثر من شهرين.. وكان يتلاعب بأمك المسكينة كما يشاء.. كان يجعلها تعطيه المال لشراء السيارات والثياب وأي شيء يريد.. هذه هي الحقيقة آشلي! لقد بحثت في ماضيه حين وجدت أنه يقابل أختي.. أتعتقدين أنني أسمح لها بأن تفكر بالزواج من هكذا رجل؟ كان سيصرف كل مالها ثم يتركها مفلسة بعد ستة أشهر!

وضعت آشلي يديها على أذنيها لكنها لم تستطع إبعاد اتهاماته عن أذنيها.. وأصبح وجهها أبيض لشدة الغضب:

ـ هذا غير صحيح! لا شيء من هذا صحيح! بن كان شخصاً رائعاً! أنت تقول هذا في محاولة لتبرير ما فعلته له.. أنت تكذب.. أنت تكذب!

رد بصوت قاس:

ـ لا آشلي.. أنا لم أكذب يوماً عليك.. فالكذب ميزة لعائلتك.

نظرت إليه بعينين مسودتين لامعتين.. بعد كل ما فعلته معه، لا يعترف بذنبه.. لم تشعر يوماً بمثل هذه الهزيمة في حياتها.. وعرفت أنها لن تتحمل المزيد.. تمكنت من دفع نفسها عن الجدار وخرجت من الغرفة لا ترى شيئاً أمامها.

***

٩ ـ دفعت الثمن... عمرها!

خلال الليل، هبّت عاصفة هوجاء انتزعت أوراق الشجر.. ورحبت آشلي بالعاصفة وفتحت النافذة لتترك الريح والمطر يضربانها وهي جالسة قرب النافذة دون حراك. منذ ساعات كانت قد بكت حتى استنزفت دموعها.. ثم أخذت تجمع أغراضها في حقائبها.. لم يكن هناك الكثير في الواقع، ثيابها وبضع ممتلكات خاصة.. مثل الشمعدانين المرجانيين اللذين أهداهما لها غرانت ومفرش المائدة الذي طرزته لها مارتا بيديها.. فهي لم تستطع ترك هذه الأغراض الثمينة بالنسبة لها.

قالت في خطابها لماك إنها استُدعيت على عجل من انكلترا، وتركت المسألة عند هذا. وبإمكان راندال أن يضيف ما يشاء من التفسير.

هكذا لم يكن لديها الآن ما تفعله سوى الجلوس والانتظار ومراقبة العاصفة.. طائرة الصباح التي تأتي بالمسافرين من جاماياكا، ستصل في العاشرة والنصف، وكل ما عليها أن تفعله، أن تطلب سيارة أجرة تقلّها إلى المطار.. من حيث تجلس كانت ترى البحر هائجاً تثيره العاصفة كالجياد الجامحة.. لكن، مع نهاية الليل، انتهت العاصفة وسرعان ما أخذت أشعة الفجر تظهر في السماء. وتراجع اللون الأرجواني القاتم لليل ليترك المجال لنور الشمس كي ينتشر.

كان راندال يغادر المنزل دائماً إلى عمله في السابعة والنصف.. انتظرت آشلي حتى الساعة الثامنة، ثم نزلت إلى المكتبة لتتصل بتاكسي يأتي ليأخذها.. رسالتها إلى ماك وحقيبتها الصغيرة في يديها.. لكن وهي تدخل المكتبة، أدار

راندال كرسيه ليواجهها، وعيناه باردتان وأصابعه متشابكة:

ـ هل أنت ذاهبة إلى مكان ما؟

للحظات نظرت إليه ببلاهة: ظننتك خرجت إلى المكتب.

ـ اليوم يوم سبت.

ـ أوه! حقاً؟

رفعت يدها تدفع شعرها عن جبينها غير قادرة على التعامل مع هذا الموقف المفاجيء.

ـ سألتك إذا كنت ذاهبة إلى مكان ما؟

ـ إلى.. انكلترا.

ـ وتتركين لي رسالة وداع؟ هذا لطف منك!

كانت نظرته ولهجته مليئتين بالاحتقار.

ـ لا.. إنها لماك.

ـ أعطني إياها.

ـ قلت لك هذه لماك.

ـ وأنا قلت أعطني إياها! أريد أن أرى أية أكاذيب قلت له هذه المرة.

أعطتها له وبقعتان حمراوان على خديها.. لكنه نظر إليها ثم مزقها أربعاً.

ـ لكن.. لكن لماذا؟

ـ لأنك لست ذاهبة إلى أي مكان! أتظنين أنني لا أرى ما تحاولين فعله؟ بهروبك الآن ستخلقين فضيحة تماثل تلك التي حاولتها من قبل.. ولحظة تعودين إلى انكلترا، ستكتبين إلى مارتا لتخبريها باقة مليئة من الأكاذيب الجديدة! وربما كذلك للايدي سمبسون وللجميع هنا لتتأكدي من نشر الغسيل الوسخ جيداً.

نظرت آشلي إليه باستنكار: لكنني لن أفعل هذا.. أعدك أنني لن أفعل.

ضحك بازدراء: تعديني؟

ـ ألا تفهم.. لقد انتهى كل شيء؟ لقد ربحت أنت وخسرت أنا.. وبإمكاننا معاً أن نتحرر من بعضنا. وبإمكانك طلب إبطال الزواج.. سأوقع

لك أية أوراق.. أي.. اعتراف.. تحبه. سأوافق على أي شيء تريده. لكن يجب أن أبتعد من هنا.. ألا ترى هذا؟

ـ أرى أنك أنت تريدين الابتعاد من هنا.. لكن لماذا يجب أن أتركك تذهبين بسهولة؟ لقد خسرت الكثير على يديك.. ولا أرى سبباً يدعوني لتركك تذهبين بسهولة.

ـ أرجوك دعني أذهب، راندال.. قلت لك إنني سأوافق على أي شيء تريده.

وقف عن الكرسي ونظر إليها بحدة، وبدأت عيناه تطوفان على جسدها النحيل الطويل.. بتقييم وقح.

ـ أي شيء.. أريده؟

احمر وجه آشلي تحت نظرته وقالت بألم: لا.. ليس أي شيء.

ـ هذا ما ظننته.. عليك إذن البقاء هنا حيث أستطيع مراقبتك.

ـ لكن.. لا يمكن أن نبقى هكذا إلا ما لا نهاية.

ـ لست أنوي هذا.. عقدك كمساعدة للدكتور ماك لثلاث سنوات.. في نهاية العقد، إذا أحسنت التصرف، سأسمح لك بالعودة إلى انكلترا.

نظرت إليه بذهول: ثلاث سنوات؟

ضاقت عيناه ومد يده يلامس شعرها:

ـ ثلاث سنوات.. هذا بالطبع إلا إذا وافقت على دفع الثمن الآخر.. والآن؟

أبعدت شعرها عنه وقالت بلؤم:

ـ حكم مؤبد خير من هذا!

ثم استدارت لتبتعد عنه، وذقنها مرفوع بتحدٍ وقلبها مثقل كالرصاص.

تطلعت عينا الفتاة السوداوان بثقة إلى آشلي، بينما أصابعها اللطيفة تعالج الحروق في ساقها.. لا بد أنها تتألم كثيراً، لكن الفتاة لم تئن وهي تضع لها الدواء.. وشكرتها الأم باستحياء قبل حمل الفتاة بعيداً.. وهي تراقبهما تخرجان من غرفة الطوارىء ابتلعت آشلي غصة جافة في حلقها. ما هذا..

إشفاق على الذات؟ حسناً.. لقد جاءت بهذا لنفسها. وعليها أن تتعلم أن تعيش معه.. تنهدت ورنت الجرس ليدخل المريض التالي.

وهي تدفع بقطعة حلوى في فم آخر مريض صغير أمامها، أحست أن أحداً يراقبها، ورفعت رأسها لترى ماكميلان ينظر إلى وجهها.

ـ لا عجب أنهم جميعاً يريدون رؤيتك أنت.. ألا تعلمين أن من الممنوعات رشوة المرضى؟

حركت أنفها له:

ـ فتاة مسكينة مثلي يجب أن تفعل شيئاً.

نظر إليها مفكراً وعينه المهنية تلاحظ كم أصبحت نحيلة وكم ازداد السواد حول عينيها:

ـ أنت لا تبدين على ما يرام.. هل أنت واثقة من قدرتك على العودة إلى العمل بهذه السرعة؟

ـ واثقة تماماً.

ـ حسن جداً.. لا تقطعي رأسي لهذا، أنت الطبيبة.

ـ آسفة ماكميلان.. سلام؟

ـ سلام.. حسناً.. سأذهب. لقد وعدت بلعب التنس في المقر.. ولو أنني أتساءل لماذا أزعج نفسي.. لم يعد هناك من فتاة عزباء سوى تونيا.. وكل ما كانت تفعله مؤخراً هو الجلوس مع غرانت.. وأراهن أنك لن تعرفي عم يتحدثان؟

ردت آشلي:

ـ أراهن أنني أعرف.. عن حدائق الخضار!

هز ماكميلان رأسه بعجب وقال متذمراً: وكيف عرفت؟ لا أحد يخبرني شيئاً أبداً.

وخرج ليذهب إلى منزله ليغير ثيابه.

ببطء قدر استطاعتها، خلعت آشلي ثياب العمل والحذاء المطاطي وأخذت وقتاً طويلاً في غسل يديها وتمشيط شعرها، ليكون الوقت الذي ستقضيه في منزل

راندال أقل.. لا تستطيع أبداً التفكير به كبيت لها.. فالبيت هو المكان الذي تكون فيه سعيداً.. وهي لم تقض دقيقة سعادة منذ زواجها المشؤوم. وكانت آرينا كذلك تتحضر لترك العمل، وحيتها مودعة بإشراق وهي تمر بمكتب الاستعلام.. ثم فكرت بتونيا وغرانت وهما يتناقشان بعمق في حدائق الخضار وكانت لا تزال تبتسم حين خرجت من المستشفى.

ـ ما أروع رؤيتك تبتسمين.

كان راندال مستنداً إلى السيارة وذراعاه مطويتان، وهو ينتظرها. كان صوته ساخراً وتغيرت قسمات وجه آشلي على الفور إلى قناع متجهم لا تعبير فيه، اعتادت عليه وهي معه منذ عودته من باربادوس.. وأضاف بخشونة:

ـ أرى أنها لم تكن ابتسامة ترحيب بي.

ـ ليس من الضروري أن تلقاني.. لدي سيارة.

ـ لن أبدو حبيباً مغرماً إذا مررت من هنا ولم أتوقف لآخذك.. أليس كذلك؟

وفتح لها باب سيارته.

لم ترد عليه، وتساءلت بارتباك كيف يمكنها أن تستمر هكذا.. كانت تعرف أن الأمور ستسوء، لكن ليس هكذا.. كانت معظم وقتها تحاول أن لا تفكر، أن لا تشعر.. لكن كان هناك على الدوام إحساس ألم كليل في أعماقها.

جلسا بصمت يتناولان العشاء الذي حضرته تالينا لهما. فيما بعد وقفت آشلي تنوي دخول غرفتها.. وتركها تصل إلى الباب، ثم نادى باسمها بوحشية، فاستدارت إليه مرتجفة.

ـ اجلسي! لم أقل إنك تستطيعين الذهاب.

ـ لا! لا تستطيع معاملتي هكذا.. إنها معاملة غير إنسانية!

ـ حقاً؟ وماذا تسمين معاملتك لي؟ أنت لم تعرفي بعد ما سأعاملك به.. لقد بدأت لتوي أعلمك كيفية المرور بجهنم! والآن اجلسي.

ببطء، وعلى مضض، أطاعته.

* * *

ـ هاي آشلي؟ أيمكن أن تعطيني بضع دقائق؟

استدارت بدهشة ورأت ماكميلان يركض في الممر خلفها، وسأل لاهثاً:

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ فكرت أن أسير نحو ترياناكا لأشتري بعض الأغراض.

ـ ألا تعرفين أن الكلاب المجنونة والإنكليز وحدهم يخرجون في شمس الظهيرة؟

ـ حسن جداً.. أشعر إنني كالكلب المجنون اليوم.

نظر إليها بعينين ضيقتين: هل هناك ما هو خاطىء فتاتي؟

قالت آشلي مبتسمة بضعف:

ـ هذا شيء يجب أن يكون حله بيدي ماكميلان.

هز رأسه: معك حق.. لكنني أردت الكلام معك. أردت أن أطلب منك أن تفعلي شيئاً لي.. شيئاً قد لا تحبين أن تفعليه وقد لا يوافق راندال عليه.. لكن ليس هناك غيرك أطلبه منه.. وهو يعني لي أكثر من أي شيء آخر فعلته من قبل.

وقفت آشلي مسمّرة تنظر إلى ماكميلان بتركيز.. وقالت:

ـ من الأفضل أن تقول لي ما الأمر.

ـ هناك مقهى في الشارع.. نستطيع التكلم هناك.

وهما جالسان في ظل خيمة، طلب ماكميلان شراباً منعشاً بارداً.. ولدهشة آشلي بدا محرجاً:

ـ حسناً.. أترين.. الأمر هكذا..

وصمت فقالت آشلي: هيا.. لا يمكن أن يكون الأمر بهذا السوء.

نظر إليها جدياً: بلى آشلي.. الأمر سيء.. لقد وقعت في الحب رأساً على عقب.. و.. الأمر مربك قليلاً.

ـ وماذا تريد مني؟

ـ أريد منك مساعدتنا على الهرب من ترياناكا إلى أن تموت الضجة.

نظرت إليه برعب: أتعني أنك تنوي الهرب معها ثم العودة؟

ـ أجل.. حال أن أتأكد من أننا سنلقى ترحيباً.

ـ ترحيباً! لا بد أنك مجنون.. وإذا ظننت أنني سأساعدك على القيام بأي شيء مشين فأنت مخطىء.. مخطىء تماماً!

اشتد فم ماكميلان في خط قاس مرير: كان يجب أن أكون أكثر ذكاء من أن أسألك. لفترة، ظننتك ستكونين إلى جانبي..

ـ ماكميلان.. إذا لم تستطع أن تخرس، سأضربك! وإذا كنت تظن أنني سأساعدك على سرقة زوجة رجل آخر، فأنت مجنون!

جاء دور ماكميلان لينظر إليها بذهول: زوجة رجل..؟ عمَّ تتحدثين؟

ـ لن أساعدك على الهرب مع كاتلين.. وهذا قرار نهائي.

ـ كاتلين؟ أنا لم أرها منذ أسابيع، ما عدا ذلك اليوم الذي داست فيه على قنفذ البحر.. وجئت أنت بها إلى المستشفى.. ولقد تشاجرنا بحدة ذلك اليوم لأنني كنت أحاول تجنبها. في الواقع، لا أستبعد أنها رأت القنفذ وتعمدت أن تدوس عليه لخلق حجة كي تراني.. على أي حال، وكما قلت.. تشاجرنا لأنها أصبحت متملكة أكثر من اللزوم ومتطلبة.. ثم.. حسناً.. لقد وقعت في حب غيرها.

ـ تلك التي تريد الهرب معها؟

ـ لا أريد الهرب معها.. أريد الزواج منها أولاً، ثم السفر والعودة بعد أن يتغلب الجميع على صدمته.

لم تستطع آشلي سوى إزعاجه بالممازحة: وكيف كان وقوع الرجل الجبار! أنت الأعزب المتعصب.. والذي لا ينوي سوى على «حبهن ثم تركهن».. من الأفضل أن تخبرني من هي هذه المثالية المكتملة، التي أركعتك على ركبتيك أخيراً.

نظر إليها متردداً: إنها.. آرينا.

تمكنت آشلي من إخفاء الدهشة عن وجهها وابتسمت لماكميلان:

ـ تهنئتي.. ما كان يمكن أن أكون أكثر سعادة.. إنها فتاة رائعة.

احمر وجهه وبدا متفاخراً: إنها هكذا حقاً.. أليس كذلك؟ ولقد لاقت من

الحياة معاملة سيئة حتى الآن.. وأريد أن أعوضها عن هذا.. لكن الأمر لن يكون سهلاً. إنها غير مقبولة من دائرة المقر، وتعرفين ما هي اللايدي سمبسون عليه.

ـ أو لا أعرف؟

لن تتمكن اللطيفة المطيعة آرينا من تحمل مثل المقابلة التي قابلتها بها اللايدي قبل خطوبتها من راندال..

ـ سأساعدك قدر ما أستطيع، طبعاً.. ما هي خطتك؟

ـ في الأسبوع القادم هناك احتفال تنكري في الجزيرة للاحتفال بذكرى شيء ما. ولا بد أن هناك فرق موسيقية واستعراضات.. ولقد فكرت أننا سنتمكن من التسلل واستقلال الطائرة إلى جامايكا بينما الجميع مشغول بالاحتفال. لقد طلبت ترخيص زواج خاص. وسيكون في انتظارنا في مكتب تسجيل العقود في كنغستون.. ثم سأتدبر أمر نشر خبر الزواج في الصحيفة المحلية، بحيث حين نعود سيكون الأمر مقبولاً.

ـ لكن ما دوري في هذا؟ هل تريدني أن أساعد آرينا في اختيار ثوب العرس أو أي شيء آخر؟

ـ لا! أريدك أن تأتي معنا إلى جامايكا لتكوني شاهدة على عقد الزواج.

ـ أذهب إلى جامايكا؟ لكنني لا أستطيع! راندال لن يسمح أبداً..

صمتت تنظر إلى ماكميلان بإحباط.

ـ أعرف أن هذا كثير.. لكنني واجهت الجحيم لأقنع آرينا بالزواج مني.. إنها تخشى أن يتبرأ منا كل موظفي الحكومة هنا.. إنها لا تستطيع أن تتحمل أن يتخلى عني كل أصدقائي.. لذلك يجب أن يكون هناك واحد منهم يدعمنا.. وآرينا لديها ابن عم في جامايكا سيكون الشاهد الآخر، لكنها لا تريد أن يكون كل الشهود من جانب واحد وكأنني سأتخلى عن كل شيء لأجلها.

قالت آشلي على الفور: بالطبع سأجيء إلى جامايكا.. يشرفني أن تطلب مني هذا ماكميلان.. لكن ماذا عن حصولنا على إجازة؟

- لدي أسبوعان مستحقان لي، ويجب أن يعطيني ماك فرصتي خاصة يوم الكرنڤال. المشكلة الوحيدة أن يرغب راندال بمرافقتك إلى الكرنڤال.. أتظنين أنه قد يفعل؟

- لا أعتقد هذا.. فهو رجل مشغول دائماً.. لكنني سأتأخر جداً في عودتي من جامايكا.. طائرة الليل التي تعود بالمسافرين لا تصل قبل منتصف الليل.

- ما من مشكلة.. لقد استأجرت طائرة خاصة.

- كنت تعرف أنني سأوافق.. أليس كذلك؟

ابتسم: حسناً.. كنت أعرف أنك لن تتمكني من مقاومة مراقبتي وأنا أضع القيد في يدي وعنقي.

- أنت لا تطاق!

فجأة تحولت إلى الجد وقالت ببطء: ماكميلان.. أظن أن من الأفضل أن لا تذكر شيئاً من هذا أمام راندال.. فسأعود قبل أن يفتقدني. وهو.. حسناً.. قد لا يفهم الموقف.

غطى يدها الصغيرة بيده الضخمة السمراء: لا يمكن أن أوافق على أقل من هذا، يا فتاتي.

حين عادت آشلي إلى المستشفى وجدت رسالة من انكلترا بانتظارها.. وبما أن أمها كانت ترسل لها الرسائل دوماً عبر المستشفى فلم تندهش.. بأصابع مترددة، فتحت الرسالة تعرف مسبقاً ما تحتويه. ولم تكن مخطئة، فقد كانت أمها تلومها لأنها لم تبادر بأي عمل ضد راندال بعد.. وتوبخها لأنها تفتش عن تسليتها الخاصة في وقت يجب فيه أن تفتش عن وسيلة تدمر فيها راندال.. كانت الكلمات قاسية، عنيفة: بن لن يرتاح في قبره إلى أن تنتقمي له! ألا تريدينه أن يرقد بسلام؟ لا يهم ما ستضطرين إلى فعله.. ولا يهم إذا ساءت سمعتك لهذا السبب.. الله سيلعنك إذا لم تتصرفي فوراً، بن سيلعنك..

كانت الرسالة أسوأ بكثير من أي وقت مضى. الخط مبعثر، غير سوي، في بعض الأماكن لا يمكن قراءته.. الكلمات كلمات مريض يهذي، امرأة

متعصبة، أو منهارة عصبياً.. طوت آشلي الخطاب ووضعته في جيبها وهي تسمع وقع أقدام دكتور ماك. ثم ارتدت معطفها الأبيض وخرجت في جولتها العادية على المرضى.

من الصعب إخفاء زواجها عن أمها إلى الأبد.. لكن كيف ستقول لها إنها واقعة تحت سيطرة عدوها الكاملة؟

بعد أقل من أسبوع ليلة الكرنڤال، تلقت برقية تعلمها بموت أمها. أرسلت البرقية مؤسسة المحاماة التي كانت تدير أملاك السيدة پاست.. وكانت قصيرة: «نأسف لإعلامك بموت السيدة كاثي پاست بسبب نوبة قلبية.. الجنازة يوم الجمعة».

في البداية لم يبدر من آشلي أي رد فعل. كانت هادئة صافية التفكير تنظر إلى البرقية دون أن تلامس مشاعرها. الجنازة يوم الجمعة، وهذا يعني الغد! لا بد أن البرقية تأخرت في الوصول إلى هنا، وبنظرة إلى العنوان وجدت أن البرقية أرسلت إلى مجموعة خاطئة من الجزر قبل أن تتوجه إلى تريناكا.. لو ركبت طائرة إلى جامايكا قد تتمكن من اللحاق بطائرة إلى انكلترا لو وجدت مقعداً فارغاً.. حتى ولو وصلت انكلترا غداً، يبقى هناك فرق التوقيت، ثم هناك السعي إلى «بورنموت» حيث كانت تعيش أمها.

التقطت الهاتف وطلبت رقم خدمة استعلامات المطار.. لكن بقية مضامين ما سيجري أخذت تتسرب إلى تفكيرها.. زواج ماكميلان! لقد وعدته صادقة أن تحضر المراسم.. بالتأكيد لن يطلب منها الوفاء بوعدها على ضوء البرقية! لكن مثله مثل غيره، ما عدا راندال، يظنها يتيمة ربتها عمة بعيدة.. ثم هناك راندال.. هل سيتركها تسافر؟ على الأرجح أنه يعتقد أنها رتبت وصول البرقية عبر صديق لها في انكلترا، وأنها مجرد ذريعة لتستطيع الابتعاد عنه بعذر مقبول وللعودة إلى انكلترا.. وعدم الرجوع إلى تريناكا أبداً!

رد عليها صوت من الجهة الأخرى للهاتف، فقالت: لا.. لا يهم.. كنت مخطئة.

ببطء شديد، وضعت السماعة من يدها ونظرت إلى البرقية مجدداً.. هناك عامل ثالث يؤخذ بعين الاعتبار.. عامل لم تكن قد سمحت لنفسها أن تفكر به ولو من بعيد.. لكن خبر موت أمها جعلها تترك لمشاعرها العنان. أغمضت عينيها وتركت للألم في قلبها أن ينتشر في كيانها كله. عرفت أنها لن تستطيع الاستمرار في الادعاء، في القتال، في الهرب بعيداً أكثر من هذا. إنها لا تريد العودة إلى انكلترا.. لا تريد مغادرة تريناكا.. لأنها.. تحب راندال.. تحب الرجل الذي يحتقرها ويريد أذيتها وإذلالها!

أدركت آشلي أنها عرفت هذا في قرارة قلبها منذ ليلة عيد الميلاد ساعة ضمها بشغف واستجابت له بشدة مماثلة.. لقد قال لها إنه سيريها كيف هو العيش في جهنم.. الآن فقط بدأت تعي شناعة ما فعلت به.. لقد كانت مصممة على دمار إنسان آخر بأبشع طريقة ممكنة، وذلك بتدمير ثقته بالمرأة التي أحبها وتحطيم ذلك الحب.

لفترة طويلة، جلست وحدها تستوعب هذا الحب الذي جاء متأخراً.. جاء بعض الهدوء الداخلي.. سيكون الأمر صعباً جداً عليها.. لكن يجب أن تجد الشجاعة للتحمل. ولن تحاول الذهاب إلى انكلترا والتي لا بد ستصلها متأخرة جداً على أي حال.. بدلاً من هذا ستذهب إلى زفاف ماكميلان وتحاول فعل شيء جيد، ربما يكفّر عن بعض من مساوئها.

فيما بعد تلك الليلة، والشمس على وشك الغروب، نزلت تسير في الحدائق تجمع الزهور وهي تسير.. لقد عاد راندال اليوم باكراً، ويبدو لأول مرة هادئاً وكأنه بانتظار شيء.. لكنه لم يمنعها وهي تخرج من المنزل. كان المد قد بدأ يرتفع مع وصولها إلى الشاطىء.. وخلعت حذاءها لتسير إلى حيث بعض الصخور تبرز من البحر. وتسلقت حتى وصلت أبعد صخرة وهي لا تزال تحمل على ذراعها زهوراً.. نظرت عبر البحر إلى الحمرة البرّاقة لمغيب الشمس.. بعد لحظات ستختفي وتعرف هذا.

همست: أنا آسفة أمي.

وأخذت ترمي الزهور واحدة واحدة إلى البحر تراقبها تبتعد طافية مع

المد.. حين اختفت آخر الزهور استدارت وعادت ببطء إلى المنزل.

ما هي إلا بضع دقائق، حتى أبعد راندال نفسه عن الشجرة التي كان يستند إليها ولحق بها.. ونظرة تفكير عميقة على وجهه وفي عينيه.

***

www.elromancia.com

١٠ ـ كم تساوي حياته؟

كان الجو مليئاً بالحيوية نتيجة عشرات الفرق الموسيقية المنتشرة في الشوارع، كل واحدة تعزف لحناً مختلفاً.

كانت آرينا تعيش في منزل صغير يؤجر غرفاً في أحد الشوارع الهادئة.. لكن الدخول إلى ذلك الشارع كان مسدوداً مؤقتاً بفرقة رقص. أوقف ماكميلان السيارة.. وانتظر نافد الصبر مبتسماً لآشلي.

ـ لا جدوى من دفعهم إلى الإسراع بالابتعاد عن الشارع.

كان هناك فرقة عازفين قادمة من خلفهم.. وبينما أخذت آشلي تقرع النغم بقدمها نسيت كل التوتر الذي رافقها ليومها.. وتحرك الراقصون من مكانهم وفتح المجتمعون الطريق ليمروا.

بدت آرينا جميلة جداً بفستان مطرز بلون العاج، وابتسمت بخجل لإصرار آشلي أن تجلس في المقعد الأمامي مع ماكميلان في الرحلة القصيرة إلى المطار، كانت الطائرة الصغيرة التي استأجرها ماكميلان بانتظارهم خارج «هنغار» وتفحص الطيار جوازات سفرهم، ونظر بدهشة حين رأى جواز سفر آشلي.. لكنه لم يقل شيئاً، بل ساعدهم على الصعود ثم دخل قمرة القيادة.. وسمعوه يتحدث بالراديو مع برج المراقبة، ثم تدرجت الطائرة الصغيرة فوق المدرج وسرعان ما ارتفعت بكل كفاءة ونعومة.

ابتسم ماكميلان وأطلق تنهيدة زائفة ارتياحاً.. وقال ممازحاً:

ـ حسن جداً.. لو استفقدنا أحداً فلن يعرف مع من هربت منكما!

ردت آرينا بخفة: سيظنون على الأرجح مع كلينا.

ابتسمت آشلي.. يبدو أن آرينا تعرف تماماً كيف تسيطر على هذا الرجل الذي أسرته..

قال ماكميلان: لقد رتبت أمر العشاء بعد الزواج في مطعم من الطراز الأول في كينغستون.. لكن لا تقلقي آشلي سنعيدك إلى المطار في الوقت المناسب.

كانت كينغستون مدينة حديثة.. وكان ماكميلان قد حضر سيارة مستأجرة، حملتهم إلى مكتب مسجل العقود حيث ستجرى مراسم الزفاف.

كانت الشمس تدخل من النوافذ في الغرفة التي جرى فيها العقد، ووقفت آرينا ملتصقة بماكميلان وهما يقسمان قسم الزواج.. وذكر هذا آشلي بزفافها الذي جرى منذ أسابيع.. ولكنها حولت زواجها إلى أضحوكة بيدها.. كان بإمكانها أن تحب وتسعد.. لكنها كانت ممثلة حقداً، وجعلتها الحاجة إلى الانتقام لا تعي المشاعر التي أثارها فيها راندال على حقيقتها.. بل استخدمتها لزيادة حدة عدائها نحوه.

هذا الصباح بالذات، جاءها الدليل على أنها كانت ظالمة دونما تبرير في تصرفاتها. فقد أوصلها راندال إلى المستشفى كالعادة، وبالكاد نظرت إليه. مع ذلك كانت تعي قربه بقوة.. كانت رحلتهما صامتة، لكن وهو يفتح الباب لها لتنزل، تردد قليلاً وبدا على وشك أن يقول شيئاً.. لكنه أشار بيده صارفاً الفكرة وقال شيئاً آخر: سأجيء لآخذك هذا المساء.. لا تذهبي إلى البلدة اليوم.. فستكون مزدحمة جداً خلال الكرنفال.

رفع ماك رأسه باستغراب ساعة دخلت مكتبه: ظننتك أخذت فرصة لحضور الكرنفال فتاتي؟

ـ لقد جئت فقط لأتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

ـ أعتقد أنني أستطيع تدبير أموري لوحدي. لكن جيد أنك جئت. لقد وصلك هذا الخطاب بالبريد الجوي هذا الصباح.

نظرت آشلي إلى ساعتها ورأت أن لديها عشر دقائق قبل لقاء ماكميلان.

هكذا صبت لنفسها فنجان قهوة وأخذت الخطاب إلى الحديقة.. وجدت أن الخطاب في الداخل هو من ابنة عم أمها التي لا تزال تعيش في آلنويك.. بعد جمل العزاء المعتادة، قرأت آشلي بدهشة مدمرة: «أرجو فعلاً أن تكوني سعيدة في ترياكا عزيزتي.. وأن لا تكوني تفكرين جدياً بأفكار الانتقام التي كانت أمك المسكينة تثرثر حولها دائماً.. ولم أكن أعرف حين قلت لها منذ سنتين تقريباً إن راندال هولمان قد ذهب إلى ترياكا أنها سوف تفتش لك عن وظيفة على الجزيرة.. وتمنيت لو لم أقل لها.. لكنها كانت تصر دائماً على معرفة آخر الأخبار عنه.. وأخشى أنها لم تكن طبيعية منذ وفاة أخيك المسكين.. كان الحزن يغمرها تماماً وتتصور كل التصورات السخيفة.. بينما كان يعرف الجميع سوء أخلاق بن وأنه لا بد سيتحطم مع سيارته يوماً».

«بالطبع لم أستطع قول هذا لأمك.. لأنها لم تكن تصغي لشيء.. لكن كان موته، كما مات، راحة.. ماذا عن اضطرارها لدفع الأضرار للرجل الذي آذاه في قتال بالسكاكين؟.. ومتابعة دفع رسوم انتسابه إلى الأندية، ودفع غرامات المحاكم عنه ودفع ثمن السيارة حين خرج من پورستال؟.. حسناً.. من العجيب أن لا تكون أمك المسكينة مفلسة أكثر مما كانت!»

ومضى الخطاب يتحدث عن أشياء أخرى لكن آشلي لم تستوعبها.. إذن كانت أمها تكذب عليها طوال الوقت عن أنها عرفت بوجود راندال في الجزيرة بعد قبول آشلي العمل؟ كانت تقصد طوال الوقت أن تدمره آشلي، دون تفكير بمشاعر ابنتها.. لكن ما من شخص عادي يفعل هذا.. أدركت أن أمها لم تكن طبيعية منذ موت بن.. وأن الحادث أخلّ بتفكيرها إلى أن لم تعد عاقلة.. وفعلت الشيء عينه لآشلي تقريباً، وليس تماماً، ولو أن هذا كلّفها حب رجل تريده الآن أكثر من أي شيء في العالم.. لكنه أحبها يوماً، وهذا ما تريد أن تحتفظ به كنزاً في ذاكرتها.

وناداها ماكميلان، فاستمهلته قليلاً لتأتي بصورة بن من المكتب حيث وضعتها في الدرج قبل زواجها.. ثم ركضت إلى الغرفة المجاورة للعيادة الجراحية حيث تحرق كل الأشياء الصلبة.. دون تردد، رمت الصورة في النار

الملتهبة وأقفلت الغطاء لتترك الماضي يحترق وحيداً.

كان الفطور بعد الزواج مناسبة سعيدة، وأحس الجميع بالاسترخاء بعد انتهاء المراسم. لكن آشلي كانت قد بدأت تشعر بالقلق.

أمسكت آشلي كم ماكميلان: يجب أن أعود إلى المطار.. الساعة الآن الثالثة تقريباً.

هز ماكميلان رأسه: آسف آشلي.. كدت أنسى الوقت.. سأستدعي تاكسي لإيصالك إلى هناك.

بالرغم من احتجاجه، لم يكن ماكميلان يريد حقاً ترك عروسه، فأخبرها أين تجد الطيار وقال:

ـ شكراً على كل شيء آشلي.. أنت فريدة من نوعك. لو لم أكن متزوجاً لكنت عانقتك.

ضحكت آشلي: حظ سعيد ماكميلان.. كن سعيداً!

وعانقته قبل أن يسرع التاكسي نحو المطار.

في المطار وهي تشق طريقها بين الجموع المزدحمة وفي يدها الورقة التي كتب لها فيها ماكميلان اسم الطيار أحست بيد تمسك ذراعها وتشدها بقسوة من بين الناس.. ثم وجدت نفسها تنظر إلى عينين رماديتين ملتهبتين.. تأوهت بإحباط: أوه.. لا!

ـ أوه.. بلى! كانت لعبة قذرة أخرى منك لجعل ماكميلان يساعدك في الوصول إلى جامايكا.. أليس كذلك؟ بماذا وعدت ذلك اللعين المسكين كمكافأة؟

احمرّت آشلي بألم لكلماته وما تعنيه. حاولت أن تتكلم لكن راندال أسكتها:

ـ وأين هو الآن؟ هل نبذته بعد أن حققت غرضك؟

قادها بغير لطف إلى باب أدخلهما إليه ضابط مسؤول مع تحية مهذبة لراندال دون طلب رؤية جوازه.. كان هناك طائرة صغيرة تنتظر، ومد راندال يده يفتح الباب لها لتصعد.

ـ لكن.. لدي..

صاح آمراً: اصعدي!

صعدت آشلي وهي تأمل أن لا يطيل قائد طائرتها الانتظار كثيراً قبل العودة إلى تريناكا.. وجلس راندال في مقعد الطيار.. ولذهول آشلي وضع على رأسه جهاز اللاسلكي وأخذ يطلب من برج المراقبة الإذن بالإقلاع. أخذ يقود الطائرة بسهولة بحيث زال خوفها وهي تجلس مسترخية إلى جانبه.

ـ لم أكن أدري أنك تعرف الطيران.

ـ هناك أشياء كثيرة لا تعرفينها عني.

ـ كيف وجدتني؟

ـ يجب على كل الطائرات أن تعطي التفاصيل عن ركابها للسلطات قبل الإقلاع. أبدى لي الضابط المسؤول دهشته لأنك مسافرة يوم الكرنڤال.

تنهدت آشلي.. كان يجب أن تعرف أن من المحتم اكتشاف أمرها.

أخذت تفكر بأن تخبره عن الزفاف وعن الطائرة التي لا تزال تنتظرها في جامايكا، لكنها صرفت النظر عن الفكرة.. فحتى لو صدقها فسيستخدم تلك المعلومة ليزيد من قبضته عليها. وأدركت أنه الآن لا بد قد تخلى عنها وآلمها هذا بشكل لا يطاق.

أخيراً حطت الطائرة بهما في تريناكا، وأخذ راندال الطائرة إلى «هنغار» وتحدث مع الميكانيكي هناك قليلاً ثم تقدم إلى السيارة المتوقفة في الظل. استلقت آشلي على المقعد، وأغمضت عينيها تشعر بالتعب. في الشوارع كان الكرنڤال لا يزال في أوجه وانضم إليه فرق من الجزر المجاورة مع أعداد كبيرة من السياح. لا بد أن راندال يعرف جغرافية البلدة، فقد شق طريقه عبر الشوارع الخلفية، ولم يخرج إلى الشوارع الرئيسية سوى مرة أو مرتين. وكان الجميع يرفع يده ملوحاً ما إن يرى علم الحاكم ويتعرف على من في السيارة.

عند وصولهما إلى المنزل، حاولت آشلي الذهاب إلى غرفتها لكنه مد يده ليمنعها:

ـ أريد بضع كلمات معك.

استدارت إليه: بإمكانك قول ما تشاء.. ونعتي بالنعوت التي تختارها.. لكنني أولاً أحس بالحرارة والعرق، ولسوف أذهب لأسبح ثم أرتدي ثيابي.

نظر إليها ملاحظاً الظلال السوداء حول عينيها والشحوب على وجهها، فأنزل ذراعه وتركها تمر.

كان البحر هادئاً بارداً كالبلسم لفكرها المتعب وجسدها المنهك.. طافت على ظهرها لفترة طويلة ثم تسلقت الصخور حيث تستطيع الجلوس وترك تفكيرها خاوياً.. ربما غفت قليلاً.. فقد وعت على لفظ راندال لاسمها بخشونة وهو يقف أمامها. كان المد قد بدأ، وكان واقفاً في الماء مغموراً حتى صدره:

ـ أنت هنا منذ وقت.. انزلي وعودي إلى المنزل.

ربما لهجته، ربما السخرية والازدراء في صوته، كانا السبب في عودة روح القتال إليها:

ـ ما بالك؟ أخائف أن أغرق نفسي وأتخلص منك بهذه الطريقة؟

ـ لا أستبعد هذا منك.. أيتها الجبانة.

مد يده ليمسك بها لكنها سارعت تبتعد عنه:

ـ أم أنك خائف أن أخدعك لأحرمك من رضى عقابي لسنوات؟

دخل بين صخرتين وأمسك بمعصمها ليجرها بقسوة إلى الماء.. وخرجت وهي تتخبط إلى السطح، وقد ذابت ثورة غضبها وتمردها.. وسارعت تسبقه إلى الشاطىء، لكنها سمعت صيحة ألم مفاجئة خلفها: لقد علقت قدمي في شيء ما.

وأخذ نفساً عميقاً ثم غاص في الماء.. لكنه عاد إلى السطح في لحظات، يشهق وينفض الماء عن عينيه.

ـ إنها صدفة عملاقة، وقد أطبقت على قدمي ولا أستطيع فتحها.

نظر إليها مباشرة وبثبات: يجب أن تساعديني آشلي.

للحظات جمدت خوفاً مثلما حدث لها حين لم تجد له أثراً تحت الماء في جاباليا كي.. أوه.. لماذا لم تدرك يومها أنها أحست بالحب؟.. وأدركت أنه

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟

كان في صوته رنة جديدة وهو يقول: سأشد أنا من جهة وأنت من جهة.

غطسا معاً.. وشدا بكل قواهما لكن دون فائدة.. الصدفة مغلقة بشدة ترفض أن تتزحزح.. وشهقا وهما يخرجان إلى الهواء وقال راندال: يجب أن نجدي شيئاً كالمخل.

وجدت آشلي غصن شجرة على الشاطىء، واضطرت إلى العودة سباحة فقد ارتفع المد إلى كتفي راندال.. أخذ الغصن منها قائلاً: فتاة رائعة!

ـ هل أحضر خزان الهواء؟

ـ إنه في المركب في الميناء.

أدخل الغصن في الصدفة، ومارس كل ما أوتي من قوة وضغط بينما كانت آشلي تشد، وسرعان ما سمعا صوت تكسر حاد وانكسر الغصن قطعتين.

لم تتوقف آشلي لتنظر إليه وهي تسبح بقدر ما تستطيع من قوة وسرعة نحو الشاطىء. وبدا لها كأنما مرّ دهر إلى أن وصلت المنزل واتجهت إلى المرآب، دون أن تعي الألم الذي تسببته بضع حصوات حادة تحت قدميها الحافيتين. لحسن الحظ وجدت الصندوق مفتوحاً، وبسرعة مرتجفة وجدت ما كانت تسعى إليه. لكن يديها المبللتين لم تمسكا بمخل الإطارات وانزلق منها، فركعت تكاد تبكي وحملته مجدداً، ثم ركضت كما لم تدرِ أنها قادرة على الركض إلى الشاطىء.

كان البحر قد وصل إلى ذقن راندال الآن، لكن كان في عينيه بريق غريب وهو يراقبها تسبح نحوه:

ـ مهلك الآن، لا تدفعيه.

أخذ منها المخل وغاص لكنه عاد ليلتقط أنفاسه.. وتمكنت آشلي من التنفس بعمق وأخذت منه المخل وغاصت.. ضغطت على المخل بكل قواها، وأحست برأسها يكاد ينفجر مع نفاد الهواء من صدرها. وحاولت تجاهل الإحساس الحارق متابعة الضغط.. وضغطت.. ارتخى المخل بين يديها وعرفت أنها لن تستطيع فعل أكثر من هذا. تغلب الألم في رأسها وصدرها عليها، وغاصت إلى القعر. شدت يدان بقسوة على ظهرها ومن مسافة بعيدة

جداً سمعت نداء اسمها بلهفة.. ثم سعلت وشرقت وهي تحاول أن ترد. لكن اليدان رفضتا تركها.. بل بقيتا تضغطان عليها وتدلكانها بقوة إلى أن لم تعد قادرة على الاحتمال.. وتمكنت من أن تقول:

ـ حسن جداً.. حسن جداً.. أنا قادمة!

جاءت ضحكة ارتياح من فوقها، واستدارت لتجد راندال يركع فوقها. حاولت أن تجلس لكنه لم يتركها، وكان في عينيه نظرة حذر غريبة.

ـ لماذا لم تتركيني أغرق آشلي؟ لكان هذا انتقاماً رائعاً لك.. أليس كذلك؟ حياتي مقابل حياة أخيك؟

نظرت آشلي إليه غير قادرة على الكلام، فأكمل: ردي عليّ! لماذا لم تتركيني أغرق؟

ـ لم.. أستطع.. تركك تموت.

ـ لكن لماذا خاطرت بحياتك لإنقاذي؟

ـ لأنني..

وصمتت.

ـ قوليها آشلي.. قوليها!

ـ لأنني أحبك، أحبك كثيراً.. وهذا مؤلم.. هل هذا ما أردت سماعه؟

واختلطت الدموع مع ماء البحر على وجهها.

كانت تتكلم بصوت أعلى بقليل جداً من الهمس، لكن راندال سمعها بجلاء.. فتنهد وكأنه وصل دياره بعد سفر طويل.. تركها تجلس، ونظرت حولها تفتش عن روب الشاطىء.

سألها: وماذا عن وعدك لأمك؟

للحظات جمدت.. ثم قالت بثبات: أمي ماتت.. ماتت منذ أكثر من أسبوع. تلقيت رسالة من قريبة لنا هذا الصباح.. وكنت على صواب فيما قلته عن أخي.. لقد قام بكل ما قلته عنه وأكثر، ويبدو أن هذا إرث عائلي.. كما قلت.. أعرف أن ما سأقوله لا يكفي.. وأنك لن تهتم على أي حال.. لكنني أردت حقاً أن أقول لك كم أنا آسفة على ما فعلته معك.

أدارت وجهها غير قادرة على مواجهة نظرة الاحتقار التي تعرف أنها ستجدها في عينيه لاعترافها المثير للإشفاق.

لم يحاول منعها لكنه تلفظ باسمها بنعومة. أبقت ظهرها إليه فأكمل دون أن تتوقع سماع ما يقول: هل كذبت عليك يوماً آشلي؟

- لا.

رفعها ليضمها بين ذراعيه: إذن يجب أن تصدقي هذا.

أدار لها وجهها لتلامس شفتاه خدها. كان عناقه دافئاً محباً، ولكنه سرعان ما انقلب لاهباً. ووجدت آشلي نفسها تستجيب دون تحفظ، تستسلم للحاجة التي أحست بها في داخلها.. أبعد رأسه عنها فنظرت إليه ودموع السعادة في عينيها.

قالت بفرح.. غير مصدقة: لا زلت تحبني.. لكنني ظننتك تكرهني.

ضمها إليه أكثر: لا.. أبداً! أعترف أنني لفترة قصيرة أردت إيذاءك بقدر ما آذيتني.. لكنني لم أتوقف عن حبك، وكنت واثقاً أنك تحبينني في المقابل.. مررت بالجحيم وأنا أنتظر لتدركي حقيقة مشاعرك نحوي، ولهذا أعطيتك مهلة الثلاث سنوات.. كان يجب أن أستبقيك هنا.. وكنت أعرف أنك ستتعرفين على مشاعرك الحقيقية حتى ذلك الوقت.

- لم أدرك هذا إلى أن تلقيت البرقية بموت أمي من انكلترا.. وعرفت أنني لا أريد أن أتركك أبداً حتى ولو عاملتني معاملة سيئة لما تبقى من حياتي.

- أعرف هذا.

- تعرف؟ لكن كيف؟

تردد.. ثم ابتسم: اتصل بي رئيس دائرة البريد ليعتذر عن تأخر البرقية.. وبعد عدة أسئلة بسيطة عرفت ما تحتويه وظننت أنك كلفت أحداً أن يرسلها لك، وجئت يومها إلى المنزل باكراً في حال قررت الفرار.. انتظرتك كل الأمسية لتقولي شيئاً.. ثم رأيتك ترمين الزهور في البحر وأدركت أن البرقية صحيحة.. وأنا آسف لموت أمك آشلي.

دفنت رأسها في كتفه تجد الراحة الكبيرة هناك، ثم قالت بهدوء: لقد أكلتها

مرارتها.. لم ألاحظ هذا وأنا معها.. لكنني أرى هذا الآن.. إنها لم تعرف أنني تزوجتك.. وأنا مسرورة لهذا.

بسرعة غيّر الموضوع: لماذا لم تخبريني بسبب سفرك إلى جامايكا اليوم قبل أن أذهب للتفتيش عنك؟.. وصلتني مخابرة من طيار كان لا يزال ينتظرك في كينغزستون.. وأخبرني بزواج ماكميلان.

- كنت أعرف أنك لن تصدقني.. ثم لم أكن واثقة أنك ستوافق على زواجه من آرينا.

- بالعكس تماماً.. أنا مبتهج، لقد نقص عدد الرجال المفترسين الذين أقلق من وجودهم قرب زوجتي الفاتنة.

نظرت إليه مغشاة العينين: أوه.. أنا لا أستحق هذا.

- بل تستحقين كل شيء ستناليه.

شدها إلى قدميها وضمها مجدداً.. وكان في عناقه حرارة مشبوبة لا تقبل أي رفض مما جعل الدنيا تدور حولها إلى أن لم تعد تفكر بشيء. حين أبعدها أخيراً عنه قليلاً كانت ترتجف.. وقال بصوت أجش:

- من الأفضل أن تذهبي إلى البيت وترتدي ملابسك وارتدي فستاناً جميلاً.

سألته وخيبة الأمل في صوتها: وهل سنخرج؟ إلى أين؟

- سترين.. هيا.. اذهبي.. قبل أن أستسلم للإغراء.

وضعت يدها على صدره وقالت بنعومة: راندال.. أنا.. لن أمانع لو بقينا في البيت هذا المساء..

تمتم شيئاً من بين أسنانه، ثم رفعها بين ذراعيه ليحملها نحو المنزل:

- أعرف صغيرتي.. لكن هناك أولاً شيء يجب أن نفعله.

كانت الرحلة في السيارة تختلف عن أية مرة سبقت. كان متى استطاع، يبعد يده عن المقود ليمسك يديها وعيناه منتصرتان مشرقتان.. دارا في البلدة المضاءة المتلألئة حيث لا تزال أصوات الموسيقى تلعلع من بعيد.. ثم توقفا قرب الكنيسة الحجرية البناء عند سطح التل.. وقال راندال ببساطة: فكرت أن نحصل على مباركة لزواجنا المدني.

وأمسك بيدها وهما يصعدان السلم الحجري.

وقفت آشلي عند المدخل، والتفتت تنظر إلى الجزيرة التي أحبتها وأحبت الرجل الواقف قربها، والذي قادها بأمان إلى خارج ظلمة نفسها، إلى السعادة. اللحظة التي طالما انتظرتها وصلت أخيراً.

***

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة